رحلة

محمّد سعيد الزّعيم و عبد الحميد شومان

ليبيا - تونس - المغرب

تقديم وتعليق: **تيسير خلف**



رحلات



كان هدف الرحلة المعلن زيارة دول المغرب العربي والمستقلة أو حديثة الاستقلال، والوقوف على أوضاعها الحقيقية، ومحاولة بناء أواصر علاقة معها في مرحلة مصيرية من تاريخها، أما الهدف الثاني المعلن جزئياً فكان البحث في إمكانيات إنشاء فروع للبنك العربي في هذه الأقطار، وقد صرح كاتب هذه الرحلة بذلك في ختام حديثه عن زيارة مراكش ولقائه العاهل المغربي محمد الخامس.

وأهمية هذه الرحلة تكمن في الزمن الذي تمت فيه حيث كانت المشاعر القومية العربية تتسم بالرومانسية، والشعارات كانت تحجب كتامة الواقع والظروف المعقدة للدول العربية بعد الاستقلال، ولعل رحالتنا محمد سعيد الزعيم ورفيقه عبد الحميد شومان، كانا من أوائل الشخصيات العربية التي فكرت بالوحدة الاقتصادية وتنبهت إلى أهميتها مبكراً، وهو ما احتاج إلى نصف قرن بعدهما ليدرك العرب أهمية العامل الاقتصادي في بناء الوحدة العربية.

الناشر



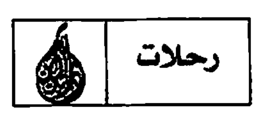
WWW.ATTAKWIN.COM
ISBN 978-9933-429-13-3

رحلة

محمد سعيد الزعيم

و

عبد الحميد شومان



رحلة

محمد سعيد الزعيم

وعبد الحميد شومان

ليبيا ـ تونس ـ المغرب

تقديم وتعليق

تيسير خلف



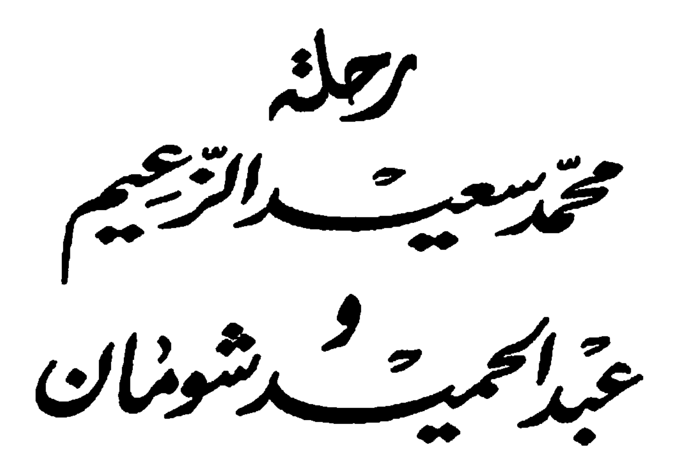
للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني- الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

ص . ب: 11418

WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com



ليبيا - تونس - المغرب

ووقفة على أطلال الأندلس

1957

تقديم وتعليق

تيسير خلف

دار التكوين

استهلال

شكلت حقبة خمسينيات القرن العشرين المرحلة الذهبية لصعود المشروع القومي العربي، الذي كان يشهد صعود الناصرية، ونمو الشعور الوطني والقومي للشارع العربي من محيطه إلى خليجه، مع تراجع المد الاستعماري وبدايات حصول الأقطار العربية على استقلالها، وكانت آمال الوحدة تداعب مخيِّلة الكثير من المثقفين والاقتصاديين والسياسيين العرب، خصوصاً بعد وحدة القطرين السوري والمصري تحت قيادة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر. وفي هذه الأجواء الحماسية كتبت وقائع هذه الرحلة التي قام بها اثنان من أهم الاقتصاديين العرب المشارقة وهما محمد سعيد الزعيم وزير المالية الساق في الجمهورية العربية السورية ونائب رئيس غرفة تجارة حلب، وعبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي وأحد الوجوه الاقتصادية البارزة في تاريخ فلسطين والعالم العربي.

كان هدف الرحلة المعلن زيارة دول المغرب العربي والمستقلة أو حديثة الاستقلال، والوقوف على أوضاعها الحقيقية، ومحاولة بناء أواصر علاقة معها في مرحلة مصيرية من تاريخها، أما الهدف الثاني المعلن جزئياً فكان البحث في إمكانيات إنشاء فروع للبنك العربي في هذه الأقطار، وقد صرح كاتب هذه الرحلة بذلك في ختام حديثه عن زيارة مراكش ولقائه العاهل المغربي محمد الخامس.

ولد محمد سعيد الزعيم في حماة أواخر ذي الحجة سنة 1322هجرية 1905م. واعتقل والده إبان حكم جمعية الاتحاد والترقي بسبب مساندته الجمعية المحمدية التي اتهمت بالارتجاعية أي إعادة السلطان عبد الحميد إلى السلطنة وخلع أخيه محمد رشاد.

وكان من أبرز الشخصيات الوطنية في العشرينات حيث ساهم في الثورة السورية الكبرى وقاوم الاستعمار الفرنسي ووضع في ذلك كتاباً عنوانه (كتاب مع ثورة حماة لسنة 1925 وفي غياهب سجونها وخواطر عن الحركة الفكرية القومية في مدينة أبي الفداء)، الذي صدر في حلب عام 1962م.

وقد عُرِفَ عن الزعيم حبه للعلم وتشجيعه للأدب العربي حيث كان أول رجل أعمال سوري يخصص مبلغاً مالياً لجائزة أدبية عام 1931م. خلاصة هذه المسابقة أن الزعيم أعلن عن عزمه على تخصيص خمس ليرات ذهبية عثمانية للفائز في دراسة موضوعها "الأدب العربي ماضيه وحاضره. مبلغ تأثره بالآداب الغربية. وما هو المدى الذي ينبغي ألا يتجاوزه تطور الأدب العربي بتأثره بآداب الغرب". وقد استجاب سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث للدعوة. وأعلن عن المسابقة في العدد الثامن من السنة الخامسة (آب 1931)، على أن يكون المتسابقون من حلب وحدها. وقد شكلت بعد ذلك لجنة تحكيم مؤلفة من الأب أغناطيوس سعد وأمين هلال والدكتور علي الناصر وسامي الكيالي، اجتمعت في الحادي عشر من تشرين الثاني 1931، وقررت منح الجائزة مناصفة بين ايزاك موسى شموس ونديمة المنتقاري (صاحبة مجلة المرأة آنذاك).

وبالإضافة إلى اهتمام الزعيم بتشجيع الأدب عرف عنه نشاطه في المحاضرات والمنتديات الثقافية والفكرية والتي كان يشارك فيها من خلال محاضرات علمية يبذل الجهود الكبيرة في الإعداد لها، وقد حفظت لنا غرفة تجارة حلب نصاً لمحاضرتين ألقيتا في خمسينيات القرن العشرين، الأولى حول (وضع الاقتصاد العربي والحواجز الجمركية بين البلاد العربية) و الثانية (نمو الاقتصاد العربي وتوجيهه للصمود في وجه إسرائيل).

أما نص الرحلة الذي بين أيدينا والذي صدر في عام 1958م عن غرفة تجارة حلب على شكل نص مطبوع لمحاضرة ألقاها الزعيم فقد بقي أسير النسخ المحدودة التي تم توزيعها في ذلك الوقت، ولم يحظ بفرصة الوصول لقراء العربية على نطاق واسع، وهو ما نطمح إليه من خلال تضمينه في هذه السلسلة التي تنشرها دار التكوين المعنونة بـ(رحلات في بلاد العرب).

وأهمية هذه الرحلة تكمن في أهمية كاتبها، وكذلك في الزمن الذي تمت فيه، حيث كانت المشاعر القومية العربية تتسم بالرومانسية، والشعارات كانت تحجب كتامة الواقع والظروف المعقدة للدول العربية بعد الاستقلال، ولعل رحالتنا محمد سعيد الزعيم ورفيقه عبد الحميد شومان، كانا من أوائل الشخصيات العربية التي فكرت بالوحدة الاقتصادية وتنبهت إلى أهميتها مبكراً، وهو ما احتاج إلى نصف قرن بعدهما ليدرك العرب أهمية العامل الاقتصادي في بناء الوحدة العربية.

تيسير خلف

دمشق في 2 أيار (مايو) 2009م

المقدمة

غادرت مؤتمر الغرف التجارية الصناعية الزراعية العربية في دورته «السابعة في القاهرة، المنعقد في 1957/11/23، في رحلة إلى المغرب العربي، إلى ليبيا وتونس والمغرب وإلى إسبانيا»، وعدت في آخر السنة. وفي 1958/2/19 ألقيت في دار الكتب الوطنية في حلب حديثاً عن رحلتي هذه، وقد طلب إلي الكثيرون نشر مفصل هذا الحديث بكامله غير مختصر، عن أحوال بلاد شقيقة لا تزال مجهولة من الكثيرين منا. وتفضلت غرفة تجارة حلب بهذا النشر في مجموعتها الزاهرة التي تُوزَّعُ في مختلف بقاع العالم العربي، فلها الشكر على ما تفضلت؛ في توثيق عرى صلات الود والمعرفة مع تلك البلاد العزيزة، ولرجالاتها صداقات طيبة خالدة مع كثير من رجال الوطنية والاقتصاد في بلاد الشام ومصر قطري الجمهورية العربية المتحدة الحبيبة.

وإذا كنتُ قد غادرت مؤتمر الغرف الآنف الذكر، والآمال مشرقة باتحاد بين مصر وسورية ووحدة اقتصادية بينهما، فإنه مما يفرحني، أن أعود من رحلتي إلى ديار المغرب العربي، والوحدة الكاملة بين البلدين حدث سعيد أُقِرَّت مبادؤه، فيسجل شهر شباط (فبراير) ميلاد الجمهورية العربية المتحدة، برئاسة الرئيس السيد جمال عبد الناصر، وتدق قلوب أبناء العرب فرحاً لهذا الميلاد، كبشرى لوحدة أعم وتعاون أهم. وما من شك أن أولئك

الأخوة في ليبيا وفي تونس وفي المغرب، الذين كانوا يحدثونني عن آمالهم العذبة في تقارب عربي جامع، والذين كانوا يطربون لأخبار المشارقة تنقلها إليهم إذاعة صوت العرب، فتقربهم من المشرق، والذين كانوا يمجدون جهاد ونضال الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر، في سبيل حرية العرب وإذكاء حماسة الشعوب العربية لتقريب ساعات كامل حريتها، ما من شك عندي أن قيام هذه الوحدة قد هزهم فرحاً ونشوة، ما هزتنا دوماً أخبار نضالهم في ليبيا وتونس وفي الجزائر وفي المغرب، وكما أفرحنا جهاد ملوكهم ورؤسائهم وزعمائهم لأجل استكمال السيادة في بلادهم وتحرير الجزائر البلد العزيز على قلب كل عربي تواق للحرية والاستقلال.

ويجب عليَّ أن أنوه بفضل المصادر التي استقيت منها كثيراً من معلوماتي التاريخية والاقتصادية والأرقام كما استوحيت كثيراً من مشاعري القومية، فأذكرها وأذكر السادة الأكارم من أصدقائي القدامى والجدد الذين رافقوني في تنقلاتي وكانوا لي خير عون في التعرف على كثير من الأشياء والأعمال والأحداث، فأذكر معالي السيد منصور قداره وزير مالية ليبيا السابق، وقد حظيت برفقته من طرابلس الغرب حتى الدار البيضاء، وهو نعم الرفيق. وأذكر معالي السيد مفتاح عريقيب وزير الدولة في ليبيا ووزر الاقتصاد السابق.

وأذكر مؤلفات الأستاذ محمد بن مسعود عن تاريخ وجغرافية ليبيا وقد أهداها إليَّ صديقي العزيز السيد عبد العزيز الزقلعي رئيس وفد ليبيا إلى مؤتمر الغرف ونائب طرابلس في البرلمان الليبي

ومن الرجالات الأحرار العاملين في البلد الشقيق، وأذكر أيضاً الإخوان الأكارم السادة عبد العزيز الفطيس عضو مجلس النواب وبالقاسم محمد العلاقي وهما من كرام رجال غرفة تجارة طرابلس الغرب. وأيضاً مؤلف الأستاذ حسن حسيني عبد الوهاب (خلاصة تاريخ تونس) والنشرة القيمة التي أصدرتها حكومة تونس تحت عنوان (هذه تونس) التي أهداها إليَّ الأستاذ علي البهلوان رئيس بلدية تونس ومن كرام رجالاتها المجاهدين في سبيل تحريرها (رحمة الله). وكتاب العرب في إسبانيا لناشره المرحوم الأستاذ علي الجارم، وكتاب الآثار الأندلسية الباقية للأستاذ محمد عبد الله عنان. والنشريات التاريخية الإسبانية باللغة الفرنسية عن إشبيلية وقرطبة وغرناطة والاسكوريال (LE ESCORIAL). وكتاب أنا عائد من مراكش للكاتب الإنكليزي (روم لاندو). وتاريخ المغرب للأستاذ محمد بن عبد السلام بن عبود. وكتاب المغرب للصديق بن العربي. ومظاهر الحضارة المغربية للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله. والمدخل إلى تاريخ المغرب للأستاذ عبد الله كشنون. ومختصر تاريخ تطوان الذي أهداني إياه مؤلفه الصديق الفاضل العلامة محمد داود من أدباء تطوان وعضو المجلس الاستشاري الوطني في المغرب، وبعض النشرات الاقتصادية والإحصائية التي قدمها إليَّ السيد جوزيف زبليط عميد الجالية السورية في الدار البيضاء، والرجل العامل في سبيل تقوية الصلات التجارية بين وطنيه الأول والثاني.

وأيضاً النشرات المالية والتجارية التي تفضل بها معالي الأستاذ عبد الرحيم بو عبيد وزير الاقتصاد في الحكومة المغربية وهو من

رجال حزب الاستقلال المناضلين في سبيل حرية المغرب. هذا فضلاً عما التقطته من مصادره من آراء ومعلومات تاريخية واقتصادية وما نقلته عن بعض الآثار وما نقش عليها، إبان زيارتي لها.

وإني إذ لا أكتم غبطتي بهذه الزيارة إلى المغرب العربي، التي تركت في نفسي حباً خالداً لأقطاره ورجالاته الذين تعرفت عليهم، وقد ملأت قلوبهم حباً بالمشرق وهياماً به وغيرة على إحياء صلات المغرب به، أتمنى لكل أخ أن يزور هاتيك الربوع الحبيبة وأن يعمل على تقوية علاقات الأخوة معها، كما أرجو أن يكثر التزاور بيننا وأن نرى على الدوام وجوه إخواننا المغاربة مشرقة مع مشرق الشمس في بلاد الشام.

وأختم مقدمتي هذه بتحية احترام أرسلها للرجل العربي الكبير السيد عبد الحميد شومان، الباعث الأول لهذه الزيارة، الذي كنت أستمد منه شعور الحب لبلاد بعثت الحضارة العربية في تلك الديار البعيدة خالدة أبد الدهر، والذي كانت رحلته رحلة جهاد في سبيل العروبة وفي سبيل الجزائر وفي سبيل الاقتصاد العربي الذي كرس لأجله كل حياته ونشاطه، راجياً أن يحقق الله له أمنيته الغالية في رؤية الجزائر وفلسطين وقد تحررتا وأصبحتا في عقد الأمة العربية ركنين أصليين إن شاء الله.

حلب في 1958/5/27

محمد سعيد الزعيم

من مصر إلى ليبيا

تركت الإسكندرية صباح الجمعة الباكر في 29 تشرين الثاني 1957 مع السيد عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي بسيارة ميّممين شطر المغرب، في يوم هائج تفتحت فيه أبواب السماء بوابل من الغيث المدرار، سالت منه الوديان وحول الصحراء إلى بحيرات متصلة بعضها ببعض طوال طريقنا، وكان البحر الأبيض المتوسط عن يميننا. مررنا أولاً ببرج العرب ثم بالحمام ثم بالعلمين وبينها وبين الإسكندرية مائة وخمسة كيلومترات.

ومن منا لا يذكر العلمين وما يثيره هذا الاسم من ذكريات مرسومة بالأذهان، ذكريات الأيام المشؤومة من الحرب العالمية الثانية، عندما اشتد أوار المعركة في أراضي مصر، واشتبكت جيوش ضخمة في معركة الحياة أو الموت، وتعلق مصير الأمم في ميزان الأقدار.

العلمين

تقع العلمين على شريط ساحلي يصل الإسكندرية بمرسى مطروح ويبلغ طوله 290 كيلومتراً، وقد شهدت رمال صحرائه معركة من أشهر معارك الحرب الأخيرة، كما شهدت من قبل عظمة الإسكندر وروعة كيلوباطرة ونمو الامبراطورية الرومانية وفتوح العرب للشمال الإفريقي. وهذا الموقع الذي وصف بأنه من أشهر ميادين القتال في العالم أجمع، الذي وقف عنده البطل

الداهية رومل ثعلب الصحراء، والذي رفع مونتغومري إلى مصاف القادة العظماء، هو ذاته كان ممراً من قبل لقادة العرب والإسلام مثل عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد وعقبة بن نافع وموسى بن نصير ومن تبعهم من الذين جعلوا الأبيض المتوسط في يوم ما بحيرة عربية وكان من قبل بحيرة فينيقية أو رومانية.

وقفنا في العلمين عند الأثر التذكاري القائم على إحدى الهضاب، لتعود بنا الذكرى إلى الماضي القريب، نسرح الطرف بتلك النصب والصلبان فوق قبور أولئك الذين لاقوا حتفهم في معارك طاحنة، كانت الشرور وأطماع البشر رائدها، فنسائل تلك الأخشاب الناطقة بأسماء الراقدين من تحتها، عما أوحت به إليها بقايا ساكني هذه البقعة الموحشة، وقد قضوا بعيدين عن ذويهم وأبنائهم وأوطانهم، وتحيينا ضحايا الإنسانية المعذبة، إنها ليست إلا قافلة سبقتها وتلحق بها قوافل من قديم الزمان وإلى ما يشاء الله، في طريق اللانهاية، هي حصيلة الأطماع والجرائم الغريزية تلطخ جبين ابن آدم إلى الأبد بسيماء الآثام والعدوان.

السلوم

وبعد العلمين مررنا بالضبعة ثم بسيدي براني إلى مرسى مطروح، ذات الصلة الوثقى بحرب الصحراء، وعلى جانبي الطريق إليها، أشلاء أدوات الحروب المحطمة من دبابات وسيارات وأسلاك شائكة مبعثرة هنا وهناك، على سهول زانتها الطبيعة بجمال الصحراء، ومياه البحر الزرقاء الصافية تقبل رمال الشاطئ البيضاء برفق وحنان، كما أن أنطونيو وكيلوباطرة يسطران بتلك

البقاع قصة حوادثهما التي ذهبت مثلاً وتاريخاً ونشيداً للحب على مر الزمان.

وبعد أن تزودنا بالوقود وأقواس قزح تحيط بنا فوق البحر وفي الأفق البعيد من الصحراء، توجهنا نحو السلوم وهي آخر حدود مصر وتبعد عن الإسكندرية 518 كيلومتراً، لنجري المعاملة الجمركية ومعاملة الجوازات. وكان الوقت ظهراً، وقد لقينا من السلطات المصرية كل ترحاب وإكرام وودعنا بتمنيات عذبة طيبات.

طبرق

وتركنا السلوم وصعدنا مرتفعاً جبلياً على الساحل أيضاً لنصل إلى الحدود الليبية، ولنشهد المعسكرات التي أقامها موسوليني، لتكون مقراً وممراً لجيوشه إلى مصر وسورية وهي الآن خاوية خالية. وبلغنا أول مركز ليبي يخفق عليه علم ليبيا، الذي يرمز إلى الشعار السنوسي والأقطار الثلاثة التي تؤلف المملكة الليبية المتحدة: برقة وطرابلس وفزان وفي وسطه الهلال والنجمة، وهذا المركز يسمى امساعد، أقرضنا حكمداره صفيحة من الوقود أعدناها لأمره في طبرق. ويبعد مركز امساعد عن السلوم 14 كم ومن بعده وبعد اجتياز 145 كم في طريق كلها معبَّدة، وصلنا طبرق المدينة الجميلة الصغيرة الرابضة على خليج باسمها ترسو به بعض السفن، وعلى جنبات المرفأ يقع قصر الملك إدريس الأول ملك ليبيا الذي يقيم فيه.

والحديث عن طبرق يعود أيضاً إلى ذكر معارك الصحراء التي كانت للفريقين المتحاربين، معارك كر وفرّ ونصر وهزيمة لا تزال آثارها بادية للعيان. ويعتبر خليج طبرق من أمنع المواقع في حوض الأبيض المتوسط، بفضل التحصينات التي أنشئت فيه خلال الحرب الأخيرة.

ويفضل الملك إدريس طبرق على غيرها بسبب هدوئها ودفئها وقربها من صحراء برقة مرابع طائفته وجماعته. وما أجمل غروب الشمس في طبرق بين البحر والصحراء، فلقد كانت روعة الطبيعة آخذة بالخيال الذي كان يتجه بنا نحو ماضي هذه البلاد العربية الشقيقة العزيزة.

درنة

بعد سير ساعتين ونصف من طبرق مساء، قطعنا خلالها 170 كم، وصلنا درنة وقد نزلنا إليها من الصحراء انحداراً حتى بلغناها على البحر، وحللنا في فندق أسسه الإيطاليون وسموه باسم الجبل الأخضر، روضة ليبيا الغناء، فنكون قد قطعنا في ذاك اليوم 850 كم.

وأفقنا في الصباح الباكر، نتفرج على معالم المدينة التي كثيراً ما ذكرت في حروب طرابلس وبرقة بين الأتراك والبرقاويين والطليان، والتي تشع منها مظاهر الحياة الحديثة حيث لا تزال فيها جالية إيطالية، كما أن فيها تجارة ومتاجر ومكتبات عربية. وتحيط بدرنة من جهة الجبل بقايا سور حديثة بناها الإيطاليون لصد هجمات المدافعين العرب الأحرار القادمين من الصحراء.

الجبل الأخضر. بنغازي

بين درنة وبنغازي 300 كم اجتزناها بأربع ساعات من الزمن، ولكنها بما تركت في أذهاننا من ذكريات، إنما اجتزنا تاريخ قرون وقرون. فلقد رحنا من درنة نصعد إلى الجبل الأخضر، في طريق معبّدة أحسن تعبيد، وهندستها تدل على كفاءة نادرة والأشجار الحراجية تكسو الآكام والحزون، وقد أقام الإيطاليون في الجبل الأخضر مزارع منظمة يستثمرها العرب اليوم، ولكن فلاحتهم كلها بدائية بوساطة الجمال والحمير والأبقار.

ويحوي الجبل آثاراً ظاهرة من بقايا الإغريق، وتستعمل مراكز إصلاح الطرق التي تركها الإيطاليون مدارس لتعليم أبناء القرى، وما أجمل قوافل الطلاب الفلاحين في الصباح تمشي زرافات ووحداناً لانتهال مناهل العلم والعرفان. وسكان الجبل هم من بقايا قبائل بني سليم الذين توارثوا عن أجدادهم الحياة بعاداتهم القبلية وتربية الماشية.

مررنا بالبيضاء وهي مصيف الملك، من أجمل المدن في الجبل معروفة بأبنيتها البيضاء والغابات المنتشرة من حولها ثم مررنا بمسة واجتزنا جسور وادي الكوف العظيمة ذات العلو الشاهق التي تصل بين جبلين في وادٍ سحيق، وهذه الجسور من إنشاء الإيطاليين. ثم مررنا بالبياضة ثم بمدينة المرج وتحيط بها سهول منبتة متصلة بالساحل إلى أن وصلنا بنغازي مدينة برقة الجميلة المنسقة أحسن تنسيق وحللنا في فندق البرنيتشي الضخم الذي يدار اليوم لحساب البلدية، وقد بناه الإيطاليون على مرفأ المدينة في موقع جميل جداً.

تعد مدينة بنغازي ستين ألف سنة، وتعد من أجمل مدن ليبيا، فيها مطار مدني وآخر بريطاني، وحيث إنَّ نظام المملكة يقضي بتناوب مركز الحكومة الفدرالية بين طرابلس وبنغازي كل عامين، فقد صادف وجودنا هناك انتقال الحكومة العليا بوزرائها ونوابها ومحكمتها الأولى إلى بنغازي. وسهلت لنا الدعوة الكريمة التي دعا إليها السيد عبد الله حامد السنوسي ابن عم الملك الوزارة جميعها لحفلة غداء في بيته العربي الكبير، إلى التعرف برئيس الوزراء السيد عبد المجيد كعبار وإلى سائر الوزراء، وكلهم من الشباب النير، وإلى التزود بكثير من المعلومات المختلفة.

وبنغازي خمائل أشجار الزيتون من طرف وزرقة البحر الصافية من جهة أخرى. تحوي المدينة الكثير من الصناعات اليدوية ولاسيما النسيجية، والبعض منها صناعة سورية الأصل، نقلها إلى ليبيا تجار وصناع سوريون أذكر منهم السادة آل خزام الحلبي المنبت. وليس في بنغازي صناعات كبيرة آلية تذكر، ولكن فيها بعض الصناعات من أثر الإيطاليين. وغرفتها التجارية غرفة ناهضة تدعى لدعم الصلات التجارية مع الخارج، ورئيسها السيد عوض لنقي من كرام الأسر البرقاوية. ويُبنى في بنغازي الكثير من دور الحكومة الليبية المركزية، كما يقام فيها أثر تذكاري كبير فخم للشهيد عمر المختار، يليق بذكرى سيد شهداء ليبيا، أوصى به الملك إدريس وفاء لحق هذا الرجل الأبي العظيم على الوطن الليبي.

طرابلس الغرب

غادرت بنغازي في الساعة الثانية بعد ظهر الاثنين 1957/12/2 من مطار بنينة الذي يبعد عن المدينة سبعة عشر كيلومتراً، على متن طائرة شركة مصر للطيران في وسط سماء غائمة متلبدة متكهربة. وبعد ساعتين وأربعين دقيقة نزلنا في مطار إدريس، وبعده عن مدينة طرابلس الغرب 29 كم. والطريق بينهما آية في الجمال تسير وسط بحر من غابات الزيتون والكرمة.

البلدة جميلة جداً وعدد سكانها يتراوح بين 180 و200 ألف نسمة. يتجلى فيها العمران الحديث، أوجد فيها الإيطاليون ساحات عامرة وأسواقاً منسقة جامعة، وشوارع عريضة منظمة فهي مدينة أوروبية وبها قصور ومنازل ضخمة فخمة ذات حدائق غناء، ومنظر الكورنيش على البحر بين أشجار النخيل بهيٌّ وأخاذ. أما المدينة القديمة داخل السور فإنها تحافظ على طابعها الشرقي الجميل. والسور المحيط بها يعود بتاريخه إلى الفينيقيين والرومانيين والعرب والإسبان والأتراك، وزرت مبنى إدارة البنك الليبي الوطني داخل السور، وهو بنك الإصدار مبني بالمرمر المختلف الألوان وهو في هندسته وعظمته تحفة غالية. وفي المدينة القديمة أسواق مسقوفة كأسواق حلب ودمشق لبيع الصناعات المحلية من نسيج وجلود وغيرها.

ومن القصور الكبيرة في طرابلس قصر الخلد وهو القصر الملكي اليوم، وقد كان مقراً للماريشال بادليو. بناه الإيطاليون على الطريقة المغربية الأندلسية فجاء عجباً سخرٌ له بناته مهرة

الصناع الإيطاليين وأعطوه منتهى حذقهم الهندسي والبنائي وفرشوه بأغلى الرياش، وفيه حديقة غناء تحاكي أعظم حدائق القصور الملكية في أوروبا. وقد زرت والي طرابلس السيد طاهر باكير، وهو رجل فاضل ومن قدامى رجال التعليم، وقد قضى في دمشق ثماني سنوات مهاجراً عن بلده وهو يحفظ لسورية كل جميل. كما زرت الغرفة التجارية التي أسسها الطليان ويديرها اليوم التجار العرب وهي غرفة فخمة ذات أثر كبير في التوجيه الاقتصادي ويسعى رئيسها والأعضاء للأخذ بأيدي التجار الليبيين ليحتلوا المكانة اللائقة بهم، كما أن لهم جهوداً كبيرة في توثيق عرى الصلاة القومية والأخوية مع البلاد العربية كلها، وقد لقيت منهم ومن ممثليهم في البرلمان كل إكرام وحفاوة وود صادق.

ومن الكلمات المألوفة في طرابلس كلمة باهي بمعنى جيد، ومازال بمعنى أيضاً أو تابع، وراجي بمعنى انتبه أو تأنَّ. وفي المأدبة المنزلية التي أقامها لنا السيد علي نور الدين الفكيني من كرام الأسرة المجاهدة الليبية قدم الطشت والإبريق على مائدة الطعام لغسل الأيدي بالصابون حسب العادات المحلية، وقدم لنا الشاي ثلاث مرات عقب الأكل.

وتضم المدينة فنادق ضخمة من الدرجة الأولى، منها فندق المهاري وقد أكرمنا فيه رجال غرفة التجارة بمأدبة كريمة، وفندق كراند أوتيل وكلها مبنية على البحر، وتحوي كل وسائل اللهو، وهي ملقى رجال الطبقات الراقية في طرابلس. وبالقرب من طرابلس المطار الأمريكي الضخم، وكانت الطائرات النفاثة

دائمة الحركة فيه. وقمت بزيارة لمبنى البرلمان الليبي، بصحبة الأخ الصديق السيد عبد العزيز الزقلعي نائب طرابلس، وهو مبنى جامع لمجلس النواب ومجلس الشيوخ، وكان يوم الزيارة معداً نفسه للانتقال إلى بنغازي.

طبيعة ليبيا

تبلغ مساحة ليبيا 1.750.000 كيلومترا وسكانها نحو المليون وربع المليون، منهم 6 ـ 7 آلاف يهودي هم دون تابعية حالياً. ومعظم الأراضي الليبية صحارى شاسعة، وكثبان متنقلة، ولكنها لا تخلو من واحات أخصبها واحات فزان والكفرة وجغبوب كما أن بها هضاباً وجبالاً وبعضها صالح للزراعة. وأعلى قمة في جبال ليبيا ترتفع إلى 3150 متراً.

الزراعة الليبية

الحمضيات موفورة في طرابلس، ويَقَدَّرُ إنتاج البرتقال والليمون بحوالي 50 ـ 60 ألف صندوق يصدر منها عشرة آلاف فقط. أما عدد أشجار الزيتون فهو حوالي 7 ـ 8 ملايين شجرة، منها في الشواطئ الثلاثة أرباع وفي الجبال البقية. وثمانون في المائة من زيتون الشواطئ للطليان و5٪ لليهود و15٪ للعرب، أما زيتون الجبال فكله للعرب. وقُدِّر إنتاج الزيت عام 1957 بنحو 18 ـ 20 ألف طن. وفي ليبيا ملايين من أشجار النخيل ويقدر الإنتاج منه في منطقة طرابلس بكمية 20 ـ 25 ألف طن، وفي فزان 7 ـ 10 آلاف طن.

تربية الأغنام والجمال

عدد الأغنام في ليبيا 180 ألفاً تقريباً والجمال 25 ـ 30 ألفاً والأبقار 40 ألفاً وهي مدار حياة القبائل ومعظم السكان العرب.

الأحوال التجارية والاقتصادية والمالية

بلغت أرقام الاستيراد في ميزان التجارة الخارجية عام 1956 مبلغ 16.601.000 جنيه، والصادرات 4.265.00 فيكون العجز 12.447.000 جنيه. وتبلغ قيمة المواد الغذائية نسبة 28٪ من مجموع قيمة الواردات، لأن الأرض الليبية لا تفي بحاجات سكانها من الغذاء.

ومن أهم صادرات ليبيا المواد الخام غير الصالحة للأكل وتبلغ نسبتها نحو 56/7٪، كما أن منها الفول السوداني والمعادن ونبات الحلفا الذي يستعمل لصناعة الورق ولإنتاج مواد السيلولوز، ويُقدَّرُ إنتاجه السنوي بنحو 35 ـ 40 ألف طن يشحن معظمها إلى إنكلترا.

وتحتل إيطاليا منصب الصدارة في التجارة مع ليبيا، تأخذ من الصادرات الليبية 38/2٪وتورد لها بنسبة 29/9٪ من مجموع الاستيراد، وتليها إنكلترا.

وليس بين ليبيا والبلاد العربية تبادل تجاري يذكر، غير ما هو قائم بينها وبين مصر بفضل المعاهدة التجارية المعقودة بين البلدان المتجاورين. وتعتبر ليبيا ثاني بل بعد السودان يستهلك صادرات مصر من النسيج الذي يدخل معفياً من الرسوم.

أما التجارة بين سورية وليبيا فإنها لا تزيد عن 36 ألف جنيه ليبي منها 25 ألف ثمن مواد غذائية و11 ألف ثمن مواد مصنوعة. وتصدر ليبيا إلى سورية بمبلغ 7 آلف جنيه مواد خامية.

يُقَدَّرُ ميزان المدفوعات عام 1955 بـ 2.700.000 جنيه ليبي (إسترليني) والدخل القومي بـ 36.300.000 جنيه. وكانت موازنة الدولة لعام 1956 قد بلغت 6/8 مليون جنيه دخلاً، و6/1 مليون جنيه إنفاقاً، والنقد المتداول خمسة ملايين جنيه. وتتناول الحكومة الليبية إعانات مالية من الخارج لتغطية العجز في النفقات، وفي الميزان التجاري والحسابي.

وليبيا اليوم في بدء مرحلة التصنيع، والصناعة اليدوية هي السائدة في صناعة النسيج والجلود المزركشة والأواني النحاسية. أما الصناعات الحديثة فهي تتناول تحضير المنتجات الزيتية وصنع المعكرونة وتعليب الخضر والفواكه والأسماك وأهمها الطون والسردين، ويقدر محصول هذه الأسماك بنحو 6400 طن من الطون الضخم و13 ألف طن من المتوسط و28 ألف طن من السردين.

وقُدِّرَ إنتاج القوى الكهربائية عام 1955 بحوالي 62 مليون كيلو واط ساعي.

مجلس الأمة في طرابلس الغرب

ومن المحتمل اكتشاف البترول في ليبيا. وفيها الآن عدد من الشركات الأمريكية والإنكليزية والفرنسية تقوم بأعمال التنقيب لهذا الغرض.ولم تجر حتى الآن أية دراسة جيولوجية للبلاد، غير أن الدلائل تشير إلى أنه لا يوجد هناك كبيرُ أملٍ في اكتشاف ثروات معدنية.

تاريخ ليبيا

هاجر الإغريق إلى ليبيا حوالي سنة 700 ق. م وأقاموا حضارة زاهرة، وعَمَّروا الأرض، وما برحت بقايا آثار "شحات" وغيرها تدل عليها. كما أن الفينيقيين اتصلوا بليبيا حوالي سنة 900 ق.م، وأقاموا لهم فيها مدناً عظيمة، وما تزال بقايا لبدة أيضاً تشهد بعظمتهم محتفظة بطابع الجمال التي انفردت بها دون المدن الأثرية.

وفي أواخر سني ما قبل الميلاد وأوائل الميلاد، أضحت ليبيا مستعمرة رومانية عظيمة حتى سنة 409م. عندما سيطر عليها (الواندال) الذي عاثوا في الأرض فساداً، وجردوا لبدة من محاسنها. ثم حكم البيزنطيون ليبيا منذ سنة 543 م. وبعد مائة عام تغلب العرب على إمبراطورية الإسكندرية، وقاد عمرو بن العاص سنة 22 للهجرة العرب لفتح ليبيا، فسلم له أهالي برقة وفتح عقبة بن نافع زويلة من مدن فزان القديمة.

وفي زمن عثمان بن عفان، إذن الخليفة لعامله على مصر عبد الله بن أبي سرح بفتح إفريقيا بوساطة جيش العبادلة المعروف الذي كتب له النصر المكين. وتوالت على طرابلس حكومات ودول إسلامية وعربية إلى أن ضعفت الدولة الحفصية، وازدادت شوكة الإسبان بعد طرد العرب من الأندلس، فاحتلت إسبانيا شمال إفريقيا ونزلت في طرابلس عام 1510م إلى أن ظهر حكم فرسان القديس عام 1535 ودام حتى الاستيلاء التركي الذي كانت طلائعه الهجوم البحري عام 1551.

العهد الإيطالي والجهاد القومي الليبي

في 29 أيلول 1911 أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا، وفي شهر تشرين أول تعرضت ليبيا لأول غزوة إيطالية واحتل الإيطاليون أهم المدن الساحلية. وجاء من استانبول ضباط كبار مثل فتحي وأنور ومصطفى كمال وعزيز علي المصري، الذي قادوا فلول الجيوش التركية زمناً مع القبائل الليبية في حرب مع المستعمر، استشهد فيها الكثيرون من أبطال برقة وطرابلس.

وجاءت الحرب العالمية الأولى، فعاد الترك في غواصات ألمانية ومعهم نوري باشا أخو أنور، الذي اتصل بالسيد أحمد الشريف السنوسي والتحق به وكانت عاصمته جغبوب. وغرض الأتراك من حملتهم هذه إشغال الإنكليز في مصر من الجانب الغربي، وإشغال الإيطاليين عن حليفتهم النمسا. ولكن الخطة فشلت واضطر السنوسي للتخلي عن حكم برقة للسيد إدريس، وذهب الأول في غواصة إلى استانبول. وفي عام 1918 إثر انكسار الأتراك وتوقيع الهدنة وسفر واليهم عثمان والضباط الألمان، جمع سليمان باشا الباروني المجاهد الكبير، مؤتمراً قومياً في 16 تشرين الثاني 1918 في مسلاتة، وأسس جمهورية طرابلسية لها مجلس إدارة. وكانت إيطاليا تتظاهر بحب التفاهم مع الوطنيين، ولكنها نظرت إلى هذه الجمهورية في طرابلس وإلى إمارة إدريس السنوسي في برقة نظرة الخداع. وأخيراً تنكرت للاتفاقيات التي أجرتها مع المجاهدين وحنقت على البيعة الإجماعية، التي تمت في مؤتمر غريان للأمير السنوسي، فباشرت بأول إجراء حربي لاكتساح ليبيا كلها مرة ثانية؛ فاحتلت في تشرين الثاني 1923 ميناء قصر أحمد للوصول إلى مصراتة التي كانت فيها حكومة وطنية برئاسة أحمد السويحلي. وكان الجنرال غرازياني قد غدر من قبل ببطل جبل نفوسة العظيم

خليفة ابن عسكر، وكان يتفاوض معه بأرض (الوطيه) فاعتقل وأعدم شنقاً في الزاوية عام 1922.

وعندما سافر الأمير إدريس إلى القاهرة لأمور صحية، وأناب لشئون إمارته أخاه السيد الرضا، أسند قيادة الجيش بالوكالة للسيد عمر المختار، وكان من أشهر الأخوان السنوسيين علماً وتقوى، وإخلاصاً وشجاعة.

وبعد أن تفرغت إيطاليا من إنهاء المقاومة في طرابلس تحولت للاستيلاء على برقة، فلقيت من عمر المختار وجنده كل ثبات، وكانت أودية الجبل الأخضر وكهوفهُ وغاباته خير مسعف لهم بإفناء الفرق الإيطالية.

وفي سنة 1929 وفي زمن باودليو والي ليبيا، الذي رأى أن فزان مهمة بالنسبة للعرب المجاهدين، أعدت حملة لاحتلال فزان، وبعد الجهاد المر، الذي قام به المجاهدون تمكنت الحملة من احتلال العاصمة مرزوق، وبذلك انتهت مقاومة فزان. وفي سبيل تطويق عمر المختار الخاضع لأوامر السيد إدريس في القاهرة، أَجْلى غرازياني والي برقة قبائل الجبل الأخضر عن أراضيها، وحصرها كلها في أراضي العقيلة، وهي صحراء ومجردة من الشجر والنبات والماء، وكان يقصد إبادتها مع مواشيها.

واستمر عمر المختار يناضل هو ورجاله الفدائيون إلى أن كانوا ذات يوم وقد نفد، بتأثير الحصار المفروض عليهم، كلُّ قوتٍ وذخيرةٍ، عندما فوجئوا سنة 1931 بكمين إيطالي في بعض أودية مسة بالجبل الأخضر، فناضلهم عمر المختارِ وإخوانه حتى نفق جواده فسقط به على الأرض، وكان شيخاً قد جاوز الستين، فأسره الطليان وحوكم في بنغازي، وأعدم شنقاً بمحلة سلوق أمام القبائل رضوان الله عليه. وانتهت بنهايته آخر المقاومات المسلحة في برقة.

وفي عهد الفاشيست صودرت جميع الأراضي الساحلية الخصبة من الليبيين، وجلب بادوليو عام 1935 عشرات الألوف من الأسر الإيطالية، حيث اقطعوا الأراضي للفلاحة، وبمساعدتهم عُمرت القرى وغرس الزيتون وكروم العنب واللوز وحفرت الآبار الارتوازية، وانتشر العمران في عموم ليبيا، وجهزت البلاد بالكهرباء وأنابيب الماء، كما مدت الطريق الساحلية في حدود تونس إلى حدود مصر وطولها حوالي 1900 كم، وقد جند الإيطاليون أهالي ليبيا عام 1935 لغزو الحبشة، ثم في الحرب العالمية الأخيرة لمقاتلة الحلفاء، وفرضوا على الأربع ولايات التي أوجدوها وألحقوها مباشرة بإيطاليا الجنسية الإيطالية، وكانت كل المشاريع العمرانية تقام لحساب ومنفعة المستعمرين دون أبناء البلاد.

واغتنم أحرار ليبيا المقيمون في الخارج فرصة الحرب الأخيرة لمواصلة الكفاح، فعقدوا مؤتمراً عاماً في القاهرة جددوا البيعة للأمير إدريس، وأقروا الانضمام للحلفاء لتحرير ليبيا، وكوِّن في 30 آب 1940 الجيش الليبي في الخارج من 14 ألفاً. وبعد ضرب البارجة الإيطالية خطأ لطائرة المارشال بالبو في سماء طبرق وهو فيها مع صحبه، جاء من روما الماريشال غرازياني ثانية، وصار والياً مكان بالبو وكوَّن جيشاً ليبياً كبيراً، كان من بينه ثمانون ألف ليبي. وبهذا الجيش هجم غرازياني على مصر حتى وصل سيدي براني، وهناك فاجأه الإنكليز في 9 كانون الأول 1942، بهجوم عام بقيادة المارشال وايفل الذي رد الطليان وأسر منهم ألوفاً، انضمت إلى جيش التحرير الليبي.

وواصل وايفل زحفه في أعقاب غرازياني المنهزم حتى احتل برقة، وبينما الإنكليز في العقيلة، فاجأهم من طرابلس مجيء الألمان بدباباتهم الضخمة، بقيادة المارشال رومل، فاسترد برقة

واستولى على سيدي براني. وبعد معركة العلمين وانكسار الجيش الألماني والطلياني في معركة دامت اثني عشر يوماً، سارع الإيطاليون بالانسحاب من ليبيا إلى تونس، ومنها مع حلفائهم إلى إيطاليا، وبذلك انتهى الحكم الإيطالي في ليبيا، بعد أن دام نحواً من 32 سنة.

الحكم الوطني

وبعد الحكم الإيطالي، أسست في كل من طرابلس وبرقة حكومات عسكرية بريطانية، وفي فزان حكومة فرنسية عسكرية. وجاءت إلى ليبيا عام 1948 لجنة تحقيق مشتركة من أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا، وقد أجمعت ليبيا على إعلان رغبتها في الحرية والاستقلال، وبعد عدة مفاوضات أعلنت هيئة الأمم المتحدة في 21 شباط 1949، قيام دولة ليبية ذات سيادة في فترة لا تتجاوز أول عام 1952.

وفي 24 كانون الأول 1951 أعلنت الجمعية التأسيسية الليبية الاستقلال، وفي أول كانون الثاني 1952، تسلمت الحكومة الليبية جميع المصالح التي كانت تديرها الحكومات العسكرية، وأعلن البرلمان الليبي تنصيب الأمير محمد إدريس المهدي السنوسي ملكاً على ليبيا.

وسارت المملكة الليبية المتحدة في طريق الإنشاء وتعريب الدواوين، وما تزال جادة في سبيل التقدم والعمران ورفع مستوى السكان.

تونس

غادرنا طرابلس حوالي الساعة الواحدة من بعد ظهر الخميس في 1957/12/5 بالسيارة ميممين الحدود التونسية. مررنا أولاً بالزاوية ثم في سبراطه ثم في زوارا، وعند الكيلومتر 169 عن طرابلس تقع الحدود التونسية، وتبعد عن مدينة تونس 602 كم. وموقع الحدود يسمى ابن غردان، وفي كل جهة من الحدود مركزان ومعاملتان. شهدنا عند دخولنا الأرض التونسية ثكنات الجيش الفرنسي، يحتلها الحرس الوطني التونسي والشرطة التونسية، بموجب آخر اتفاقية بين تونس وفرنسا. ومعاملة الحدود كلها باللغة الفرنسية.

مدنين وكابس

مررنا بأول بلد تونسي (مدنين) وهي مركز ولاية تبعد عن الحدود 78 كم، والطريق من طرابلس إلى الأرض التونسية كلها معبدة عامرة بالزيتون والحمضيات والزراعة الشتوية والغياض في سهول فسيحة وعلى الساحل. ومن ثم وصلنا مدينة كابس، وفي ريفها وعلى طريقنا لقينا موكب عروس وهي على هودجها وحولها الأقارب والأهل بثيابهم الملونة المزركشة، يهزجون ويصفقون. وبعد قليل شاهدنا على الطريق ذوي العريس وأهل قريته يقفون بانتظار الموكب لاستقباله بالدف والمزمار وكانت الليلة ليلة جمعة.

صفاقس

وحول الساعة الثامنة مساء وصلنا مدينة صفاقس وتبعد عن الحدود 292 كم. وتعد من النفوس 65636 نفساً تتجاور فيها الأحياء القديمة بين أسوارها الحصينة مع الأحياء العصرية ذات الشوارع العريضة المستقيمة، وحولها ضاحية ممتلئة بالمنازل الأنيقة والحدائق الزاهرة، وميناؤها من أنشط الموانئ حيث يتوارد عليها فسفات قفصة، وقد جدد بعد الحرب الأخيرة، وفي عرض البحر توجد جزر قرقنه.

وتمتاز صفاقس بخصب أرضها وببراعة أهلها في الزراعة، إلا أن الأمطار كثيراً ما تمسك عنها فتمر بها سنوات عجاف. وفي صفاقس إمكانات عظيمة لزراعة البقول والأثمار، إذا توفرت لها وسائل الري. وفيها إمكانات للتوسع في الصناعات التي توجد منها الآن صناعة الصابون والعطورات والمشروبات العادية وتكرير الفسفات.

وغابات الزيتون حول صفاقس المتصلة الحلقات، تمتد حيثما لا يدركها الطرف وذلك في تناسق هندسي بديع، وأشجارها متباعدة عن بعضها حتى تصل مدينة الجم، وبينها وبين صفاقس 65 كم. قضينا ليلتنا في أحد فنادقها الكبيرة، وتجولنا ليلاً في ساحات صفاقس الحديثة وشوارعها. وفي الصباح دخلنا المدينة القديمة التي ما تزال أسوارها عامرة، تكسبها جاذبية روحية تعود بنا إلى تاريخ تونس الماضي المجيد.

إلى الجم وسوسة

كان البحر على يميننا من طرابلس إلى تونس، والبحر في تونس هو الذي طبع كل شيء بطابعه الحيوي، فالبحر هو الذي

يوجه نشاط البلاد. لهذا كانت جميع المدن التونسية الكبيرة باستثناء النزر القليل منها مدناً ساحلية. ومهما تماثلت الأرض وتشابه المناخ فإن المناطق الساحلية تفوق المناطق النائية عن البحر من جهة الاستغلال وتطور العيش. والحياة تنتظم قرب البحر، وبفضل البحر وفي الأقاليم المتاخمة للشواطئ يتكاثر العمران ويرتفع مستوى الحياة.

وسواحل تونس طويلة متعرجة ملتوية، وعليها تلوح آثار الرومان وفينيقيا والرباطات العربية والقلاع التركية والحصون الإسبانية، تحدث بما شاهدته هذه الشطئان من غزوات متلاحقة.

بلغنا مدينة الجم صباح الجمعة وبينها وبين صفاقس 65 كم وبين تونس 139 كم وفيها المسرح الروماني الشهير الذي تنبئ مقاعده البالغة ستين ألفاً عن مدى ما بلغته تلك المدينة قديماً من عمران. وبعد سير 129 كم من الجم أدركنا بلدة سوسة، المدينة التي أبحر منها قاضي القيروان الأميرال أسد بن الفرات لفتح صقلية.

والمدينة أقيمت فوق مرتفع (هدرومات) العتيقة ويسكنها حالياً 48 ألفاً وحولها قرى كبيرة منتشرة في بادية ذات مرتفعات تتزاحم فيها بالمناكب أغراس الزيتون في غير نظام. ثم مررنا بالنفيضة ثم بحمام الأنف وفيها قصور ومصايف الباي وتبعد 20 كم عن تونس وتمتاز بحماماتها المعدنية وفيها محطة (تلفريك) للمركبات الهوائية الكهربائية، والطريق كلها وحتى أن بلغنا تونس كانت تزداد فيها معالم العمران والإنشاء والحياة، والبحر قريب منها.

تونس وضواحيها

وصلنا تونس حول العاشرة صباحاً بعد أن نكون قد قطعنا 3068 كم من القاهرة، والمدينة تقع على حافة بحيرة قريبة من مرسى قرطاجنة الفينيقية، ويبلغ عدد نفوسها مع الضواحي 678

ألفاً، وتبدو من حيث طبيعة أرضها ملتقى المجتمع العصري والقديم. والمدينة القديمة وربضاها الملتصقان بها، ربض باب الجزيرة وربض باب السويقة، هي المركز الحساس بما ضمت داخل سورها (الذي مازالت بعض أجزائه قائمة) من طرق ضيقة وأسواق مسقوفة، وفي ما بين المدينة القديمة والبحيرة تقوم المدينة الجديدة بشوارعها وطرقها المقسمة على الترابيع ذات الزوايا القائمة، وبعماراتها ذات الخمسة والستة طوابق، ووراء هذه الدوائر المحدودة التي تتجمع فيها أغلب مظاهر النشاط المدني والتي تعظم فيها حركة المرور ويشتد الزحام، تأتي منطقة المساكن المتجمعة في الأحياء الجميلة الملتصقة بالمدينة من جميع الجهات، كما أن بها حديقة كبيرة جميلة تقوم على رابية مشرفة على المدينة والبحر منحتها الطبيعة أبهى حللها. كما أن تنظيم الحديقة وأشجارها وخمائلها كله آية في التنسيق، وتربط المدينة بالضواحي خطوط الحافلات والسيارات والقطر مثل أريانه وباردو التي تكاثرت فيها المباني حول قصور الباي وحلق الوادي مركز الصيد البحري ومدخل ميناء تونس الذي يتضخم عدد سكانه كل سنة في فصل الصيف بتكاثر المصطافين، وقرطاجنة التي تتجاور فيه القصور المزدهرة مع المرسى الفينيقي العتيق والمسارح والمعابد القديمة، وسيدي بوسعيد مقر النخبة من الكتاب والفنانين الذي يشرف من عليائه على المنظر البعيد التي تبدو فيه مدينة تونس بين إطارها من ضواحيها، والمرسى وهو مصيف ذوي اليسار. وفي الضفة الأخرى لبحيرة تونس توجد قرى كثيرة جميلة مثل رادس.

وقد امتازت من بينها حمام الأنف الواقعة على سفح جبل (بوقرنين) بحماماتها المعدنية وقرية سليمان ذات الطراز الأندلسي. كما أن على ساحل البحر القريب من تلك الضواحي تقع قرية قربص، وفيها قصر ملكي قديم اتخذ منه مركز للاستحمام

بالمياه الحارة الطبيعية وبالبحر، وفي الطريق إلى قربص توجد بلدة نابل وفيها الكثير من دور عمل الخزف الجميل الدقيق الصنع والقيشاني المختلف الألوان.

والحقيقة أن جمال الطبيعة قد تجلّى بأبهى حلله في ضواحي تونس، وعلى شطآن البحيرات التي تكتنفها الجبال الخضر، ومعظم الأبنية من حولها ذو طراز أندلسي مطلي من الخارج بالأبيض الناصع، ولون نوافذه وأبوابه وأكشاكه الجميلة الشرقية الدقيقة النجارة أزرق فاتح. وأبواب البيوت كبيرة عريضة، ولكل باب من ضمنه باب (خوخه)، وأشجار النخيل والبرتقال والورود والأزهار على اختلافها تزيد في مفاتن تلك المواقع الأخاذة.

وفي المرسى يقوم القصر الملكي السابق (السعيدة)، وفيه عقدت معاهدة باردو في 12 أيار 1881 التي قبل الباي بموجبها الحماية الفرنسية، ثم عُقِدَتْ فيه معاهدة المرسى في 8 حزيران 1883 التي أفقدت تونس حقيقة استقلالها. وفي هذا القصر بالذات أبلغ آخر باي عزله عن العرش التونسي.

أما (قمارت) وما تحويه من (بلاجات) أنيقة لجانب التلال المكسوة بالخضرة الدائمة تظلل الدارات الجميلة ذات الطابع الأندلسي فهي من مفاتن الأرض التونسية.

وبالقرب من ذلك المدرج القرطاجي في قارطاجة وحوله الملعب الروماني الذي كانت تلقى فيه الفتيات للأسود يفتكن بهن ويلتهمنهن. وحول ذلك متحف سلامبو للأسماك، وهو متحف غني بالأسماك المصبرة وعظام الحيتان الكبيرة ومختلف الأسماك ما هو عجب عجاب في تركيبه، ومما يشبه في وجهه وجه الإنسان، وكل ذلك مما يعيش في بحار تونس. كما توجد في المتحف أنواع كثيرة من مصبرات الطيور التي تعيش في تلك الأقطار.

ولقد وقفت على أطلال قرطاجة القديمة وميناثها الصغيرة تشبه إلى حد كبير ميناء رأس شمره قرب اللاذقية. ويقال إن بعض القبائل العربية التي هاجرت من جزيرة العرب مثل بني هلال وبني سليم قد خربت كثيراً من آثار قرطاجة.

تاريخ تونس والاحتلال الفرنسي

وإني أتوقف هنا عن البحث، لأورد شيئاً عن تاريخ تونس القديم، فأقول أن قرطاجنة أسستها عمارة فينيقية أتت مع (ديدو) والتي هجرت صور بعد أن قتل أخوها زوجهَا، فثارت على أخيها ولكنها غُلِبَتْ فلجأت إلى البحر مع جماعة من أكابر قومها وحطت في الشمال الإفريقي، واشترت من البربر قطعة من الأرض بنت عليها مدينة قرطاجنه سنة 840 ق.م. ولعبت هذه المدينة وجمهوريتها دوراً كبيراً في التاريخ والتجارة والسياسة والحروب، إلى أن كان الاستيلاء الروماني سنة 146 ق. م وقد دام حكمه لتونس حتى سنة 430م. ثم عقبه حكم الواندال من 439 إلى 534 م ثم الحكم البيزنطي إلى 642م. ثم جاء العرب عام 647 عندما فتح عبد الله بن الزبير سبيلطه كما فتح عبد الملك بن مروان، وكان من أمار الجيش العربي قبل أن يصير خليفة، مدينتا جلولا وبنزرت، وأسس عقبة بن نافع مدينة في الداخل سماها القيروان.

ثم عاد الجيش العربي لاحتلال الأرض التونسية عام 668، واحتل حسان بن النعمان قرطاجنة عام 697 وقضى على المقاومة البربرية التي كانت تقودها الكاهنة أميرة البربر.

ومرت على تونس عدة عهود إسلامية منها المهالبة والأغالبة، وقد ابتدأت دولتهم عام 800م. عندما استقل بالملك إبراهيم بن الأغلب، وفي عهد زيادة الله جهز الأسطول العربي بدار صناعة سوسة، واستعمل عليه قاضي القيروان (أسد بن الفرات) ففتح عدة

حصون ومدن في جزيرة صقلية (سيلسيليا). وفي عام 900م جاء دور الدولة العبيدية وكان منهم المعز لدين الله الذي سيّر القائد جوهر إلى مصر، فأسس له مدينة القاهرة المعزية، وبذلك أصبحت الديار المصرية تابعة للدولة العبيدية إلى أن انتقل المعز إلى مصر وجعلها قاعدة ملكه. ثم جاء دور الدولة الصنهاجية ثم الموحدية ثم الدولة الحفصية ثم جاء خير الدين باشا من الجزائر سنة 1514م أو 935 هـ واحتل تونس، وخطب للسلطان العثماني، ولكن الفتح التركي النهائي لم يتم إلاّ عام 981 هـ أو 1574م على يد سنان باشا. ودام الدور التركي إلى سنة 1117 هـ أو 1705م. حيث تأسست الدولة الحسينية، ومؤسس هذا البيت حسين باي الأكبر وأبوه من كريت، ودام حكم هذا البيت حتى العام الماضي.

وبعد عام 1294 هـ اضطرب حبل الأمن في الأراضي التونسية، واختلفت الأحزاب، وكثرت المشاكل بدسائس بعض القناصل، وصدف أن حصلت مشاجرة بين عربان جبال (خمير) في الشمال الغربي من تونس، وبين بعض الأهالي التابعين لحكم الجزائر، فرأت الحكومة الفرنسية أن تتدخل في الشؤون التونسية، فساقت من الجزائر جيشاً تسانده فرقة من الأسطول أرست على مدينة بنزرت، وأنزلت جنودها واتجهوا إلى العاصمة وحاصروا باردو، حيث يقيم الباي محمد الصادق، الذي اعترف بحماية فرنسا، ووقع على المعاهدة التي عرضها عليه الجنرال (بريار). في 12 جمادى الثانية 1298 وبعد وفاة الباي وارتقاء أخيه سيدي (علي باي) عرش تونس، وفي 1883/5/8 وقعت اتفاقية (المرسى) وبمقتضاها التزمت الحكومة الفرنسية بإجراء إصلاحات داخلية مما تراه مناسباً، ومع أن الاتفاقية قد حفظت للباي السلطة التشريعية، إلا أن المقيم الفرنسي هو الذي باشر عملياً، كل سلطات الباي وتسلم الإدارة مباشرة.

وظلت سيادة الباي الرسمية تنتقل من باي لآخر حتى تسلمها الباي محمد الأمين الأول بعد خلع محمد المنصف باي، الذي نفي إلى فرنسا ومات بها، وهو المحبوب من شعبه كثيراً. والباي الأخير محمد الأمين وهو تاسع عشر أمير بين أمراء الأسرة الحسينية، خُلِع عن العرش كما أسلفت عندما أعلن المجلس التأسيسي، إلغاء النظام الملكي وقيام النظام الجمهوري يوم الخميس في 25 تموز 1957.

وقد خرج وفد من قصر المجلس يضم ممثلي السلطة التنفيذية والتأسيسية وقصد إلى قرطاجنه، حيث أحيط الباي علماً بقرار المجلس، وأبلغ قرار وزير الداخلية الذي يحدد له الإقامة في بلدة منوبة تنفيذاً للتعليمات الصادرة عن المجلس التأسيسي وقد استقر وأبناؤه وولي عهده بالمنزل الذي خُصِّصَ لهم. وبذلك طويت صفحة عهد دام مائتين واثنين وخمسين سنة.

استقلال تونس والحزب الحر الدستوري التونسي

كل هذا تم في نطاق التطور الذي صارت إليه تونس، نتيجة لإجماع الشعب التونسي على طلب الحرية والسيادة، فقدم في سبيل ذلك تضحيات جسيمة، ولقي أحراره في مدى خمسة عشر عاماً كل مصائب التشريد والنفي والاعتقال، كما لقي بعضهم حتفه في معارك، أو من جراء اغتيال ومؤامرات. وفي 31 تموز 1954 اعترف الرئيس منداس فرانس في بيانه بقرطاجة، اعترافاً رسمياً بحق تونس في الاستقلال.

وبعد بضعة أسابيع افتتحت المفاوضات بين حكومة السيد ظاهر بن عمار والحكومة الفرنسية، وتعسرت هذه المفاوضات كثيراً، إلى أن جاءت حكومة ادغار فور فوقع بنفسه مع بن عمار اتفاقاً في 955/6/3 اعترف فيه بنظام الاستقلال الداخلي الذي

كان فاتحة عهد آخر، حيث في 20 آذار 1956 اعترفت فرنسا على رؤوس الملأ ودول أخرى أيضاً باستقلال تونس.

وقد وقف المسيو بينو مساء يوم الثلاثاء المذكور بحضور الوفد التونسي، يتلو نص البروتوكول القائل: تعترف فرنسا على رؤوس الملأ باستقلال تونس.

ونتيجة لذلك وبعد خمسة أيام، دعي الشعب لانتخاب مجلس قومي تأسيسي. ثم توالت مراحل تسلم أسباب السيادة التونسية حتى اليوم، ولما تتخلص تونس من براثن الاستعمار الفرنسي، ولكنها واصلة حتماً للخلاص منها نهائياً بإذن الله.

ويجدر بي هنا، أن أذكر شيئاً عن الحزب الحر الدستوري التونسي، حامل لواء الاستقلال. فهو قد تأسس عام 1920، والهيئة العليا فيه هي الديوان السياسي، وبعدها يأتي المجلس الملي، الذي يضم 32 عضواً ينتخبهم المؤتمر العام للحزب، بالإضافة إلى مندوب واحد عن كل دائرة وعددها 41، وهي تمثل الشعب وتبلغ 8830 شعبة.

وقد استطاع الحزب أن يتجه عن طريق المنظمات المهنية إلى إشراك جميع عناصر الأمة في معركة السيادة. فأحدث لذلك الاتحاد العام التونسي للشغل، والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة، والاتحاد العام للفلاحين التونسيين، والاتحاد القومي للمزارعين التونسيين، كما أن الاتحاد القومي للنساء التونسيات والكشافة التونسية، انبعثت منظماتها عام 1946 ويبلغ عدد الكشافة 20 ألفاً.

إصلاحات عهد السيادة

ومن الإصلاحات التي حققها عهد السيادة الإصلاح القضائي في 13 آب 1956 ومنه ما يتعلق بالأحوال الشخصية بالنسبة للتونسيين

المسلمين، كإخضاع الطلاق للمحكمة، وإلغاء تعدُّد الزوجات وتنظيم الزواج بفرض سني أدنى، ومنها الإصلاح التربوي بالشروع في تطبيق مبدأ مجانية التعليم الابتدائي، وتحوير برامجه لتتوافق والوسط التونسي العربي، وهذا الإصلاح لا يقضي بإلغاء تعلم اللغة الفرنسية في المرحلة الابتدائية.

ومنها الإصلاح العمالي، ففي 30 نيسان 1956 اتخذ تدبير بمنح العمال الزراعيين القانون الذي تطالب به المنظمات النقابية لضبط وتنظيم طريقة تعيين أجر العامل، وتنظيم أوقات العمل، وجعل الراحة الأسبوعية إجبارية، وإحداث شبكة من الصناديق الاجتماعية التعاونية الزراعية.

وفي حقل المرأة يمكن القول إن المرأة التونسية التي كانت بالأمس حبيسة لا تهتم بأمر خارج عن نطاق وسطها العائلي، أصبحت اليوم مدرسة وطبيبة وموظفة ومرشدة اجتماعية، إلى غير ذلك مما تمارسه من المهن، كما باتت تساهم بقسط متزايد في حياة البلاد وفي جميع مظاهر النشاط.

إنها تعتني بالدرس وتمارس الرياضة البدنية، وتمشي مشية عسكرية في الاستعراضات لابسة أزياء الرجال، وتبدو أحياناً من بعيد مرتدية حجابها الأبيض، كما لو كانت تتخذ منه جناحين لإسراع الخطى.

والاتحاد القومي للنساء التونسيات يلعب دوره العظيم في خلق جيل جديد صاعد نسائي. كما أن الاتحاد العام لطلبة تونس من أكثر المنظمات أثراً في الحياة العامة في تونس ونظامها الإداري يقوم على الفروع، ويوجد فرع لها في كل معهد. وينشر الاتحاد

العام للطلبة صحيفتين الأولى باللغة العربية والأخرى باللغة الفرنسية.

السكان وطبيعة البلاد ومرافقها والثروة الزراعية والحيوانية والمائية

ويبلغ عدد سكان تونس 3.784.000 يمثل المسلمون منهم 93/2٪ ويوجد من الفرنسيين قرابة 180.450 وثم الإيطاليين 66.900 ومن اليهود 57.786 ومن الجاليات المختلفة 86.149. ويرجع أصل سكان تونس إلى عدة عناصر أهمها البربر وهم السكان الأصليون ثم فينيقيون فيونان فعرب، وفي العصور الأخيرة امتزج الشعب التونسي بمهاجري الأندلس والأتراك كما اختلط قليله بعد ذلك بالأوروبيين.

وتبلغ مساحة تونس 125 ألف كيلو متر مربع، وتتقسم الأرض التونسية إلى ثلاثة أقسام طبيعية هي الشمالية وتتركب من مزارع خصبة يمر على جانب عظيم منها وادي مجردة والساحل من الناحية الشرقية على طول البحر ويتألف من أرض منبتة غزيرة العمران وافرة السكان، والقسم الجنوبي ويشمل سهولاً عظيمة ومراعي شاسعة وواحات نخيل تبتدئ منها الصحراء الكبرى.

وترية تونس مخصبة إجمالاً صالحة للزراعة وأشهر حاصلاتها القمح والشعير والذرة والزيتون والنخيل والكرمة وغالب الفواكه، والمساحات غير المنتجة في تونس تبلغ 3 ملايين هكتار ونصف من أصل 9 ملايين، وتحتل الغابات مليون هكتار من بين 4 ملايين

يتواصل استغلالها أو زراعتها، يضاف إليها 4 ملايين صالحة للمراعي، وتحتل الحبوب مليون هكتار في الشمال والوسط.

ويقدر الإنتاج من القمح القاسي بـ 1.800.000 قنطار، ومن القمح الطري 2.200.000 قنطار. ويصدر من الطريق فقط نحو 200 ـ 300 ألف قنطار فقط، كما تحتل الكروم مساحة 38 ألف هكتار، والحمضيات ستة آلاف هكتار، فيها 200 ألف شجرة تقريباً.

وتحتل الزيتونة 800 ألف هكتار في وسط تربة ومناخ مثاليين في تونس، فازدهرت بسببها البلاد وهي اليوم أحد الأسس الثابتة للاقتصاد التونسي بأشجار التي تعد 27 مليون شجرة بنسبة مائة شجرة بالهكتار في الشمال، و80 في الوسط، و20 بالمناطق الجافة في الجنوب.

وتحتل تونس المرتبة الخامسة في الإنتاج في العالم، والثانية في التصدير لجودة نوع الثمار، ويقوم على زراعة الزيتون في تونس 276 ألف مزارع، وتملك نحو 2000 معصرة للزيت، ومخازن للزيت تسع 80 ألفاً من الأطنان، وقدرت مواسم 1956/1955 بنحو 116354 طناً. وفي تونس 250 ألف شجرة لوز و8 ملايين ونصف المليون من الأشجار المثمرة، ونحو 3 ملايين من النخيل في الواحات. وتستخدم الآلات الزراعية بكثرة في الشمال حيث تعمل 2700 آلة حصاد ودرس.

وهناك عدة أعمال ومشاريع للري والسدود ولتوليد الكهرباء، فإنه نهر مجردة الذي تتدفق مياهه من الجزائر قرب تبسه في ارتفاع 1250 متراً، وهو أعظم أنهار تونس وطوله 460 كم. يقوم

عليه مشروع إحياء أراضي وادي مجردة الذي أمكن إنجاز نصفه في عام 1957.

ويبلغ الاعتماد المالي المنتظر صرفه بـ 25 مليار فرنك تبذلها الخزانة العامة للدولة، وهذا من شأنه إنتاج كهرباء بكمية 30 مليون كيلو واط في العام، وري 50 ألف هكتار من الأراضي البعل، واستصلاح 40 ألف هكتار كانت غير صالحة وحماية 52 ألف هكتار من الفيضانات.

أما السدود الكبرى في تونس فأهمها سد وادي ملاق وسد العروسية، ويكفلان ري 50 ألف هكتار، وهناك سد ثالث، سد بني مطير الذي أقيم على وادي الليل، وقد انتهى في أيلول 1953، وهو يتسع لمقدار 75 مليون متر مكعب من المياه، ويزود العاصمة التونسية في كل يوم بنحو مائة ألف متر مكعب من الماء الصالح للشرب. ومن المنتظر أن تتم إقامة معامل لتوليد الكهرباء بوساطة سد بني مطير، تنتج مائة مليون كيلو واط في العام.

وبمناسبة ذكر القوى الكهربائية، أذكر أن استهلاك الفرد التونسي في العام من القوى الكهربائية 60 كيلو واط ساعي، بينما هو في فرنسا 1060. وأن المصنع الكهربائي في حلق الوادي، وهو أكبر مصنع بشمالي إفريقيا، ذو قوة تبلغ 70 مليون وات، وقد أنتج سنة 1956 نحواً من 220 مليون من كيلو واط ساعي. كما يوجد مصنعان آخران في مناطق سوسة وصفاقس تبلغ قوتهما بضعة ملايين وات.

وقد ارتفع الاستهلاك المنزلي في تونس من 72 ألف كيلوات عام 1938 إلى 145 ألف عام 1955.

وتبلغ شبكة سكك الحديد في تونس 2000 كم، وفي حقول تربية الحيوانات يذكر أن عدد رؤوس الأغنام في تونس يبلغ 3 ملايين وربع المليون. وفي الشمال يتزايد عدد البقر البالغ 536 ألف رأس، إلى جانب 96 ألفاً من الخيل، و56 ألفاً من البغال. كما يوجد في الجنوب والوسط 1.940.000 رأس من الماعز لجانب الأغنام التي ورد ذكرها.

في الميدان التجاري والصناعي

وفي الميدان التجاري نرى أن ميزان التجارة الخارجية لتونس لعام 1956 زاد عن 62 مليار فرنك استيراداً و42 ملياراً صادراً، وأهم الواردات مواد استهلاكية وغذائية وأصناف المنتوجات ومواد خام ووسائل التجهيز والطاقة، وأهم الصادرات معادن الرصاص والحديد والفوسفات والأسمدة وزيت الزيتون والحبوب والخمور ومنتجات الصيد البحري ومادة الحلفا والحمضيات والخضار وغير ذلك.

والإنتاج الداخلي على أشكاله يبلغ 165 مليار فرنك منها 39٪ من الزراعة و28٪ من الصناعة و27.5٪ من التجارة والباقي يعود إلى موارد مختلفة ويلحق الفرد في تونس من الدخل القومي 45917 فرنكاً وفي الجزائر 56475 وفي المغرب 60666 وفي فرنسا 302310 فرنكات، وتبلغ المبالغ المبذولة من عام 1947 إلى 1954 نحواً من 135 مليار فرنك.

وفي الحقل الصناعي قُدِّرتِ الأموال المرصودة ما بين أعوام 1945 و1955 بنحو 55 مليار فرنك بذلك خاصة إلى شركات البحث عن النفط والمناجم وتكرير الفوسفات وصنع الإسمنت ومواد البناء والورق واللفائف المعدنية والنحاس والنسيج، وفي

العاصمة وحدها 4314 مؤسسة من مجموع 8392 توجد في تونس والاستهلاك الصناعي من الكهرباء ارتفع من 30 مليون كيلو وات في عام 1938 إلى 132.7 مليوناً في عام 1955.

وفي ضواحي تونس تقوم صناعات عدة ومعامل للإسمنت ومطاحن ولكن معظمها لليهود والأجانب.

حاضر تونس وماضيها وجولة في معالمها

وتونس - كما شهدتها - بلدة جامعة بين القديم والحديث فيها ساحات وشوارع ومقاهي ومطاعم وملاهي تجعلها مدينة أوروبية راقية في كل معالم المدنية، أما القديم منها فإنه يضم مفاخر العهود العربية والحكم الإسلامي، ويكفي تونس فخراً أنها مسقط رأس ابن خلدون العلامة الفيلسوف والمؤرخ الشهير الذي ولد في غزة رمضان سنة 732 هـ. وتوفي في القاهرة سنة 808 ودفن فيها.

وأن تونس تضم جامع الزيتونة الأعظم، الذي بني في عهد عبد الله بن الحبحاب الذي قدم إفريقيا سنة 116 للهجرة، عاملاً من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد وقفت في جامع الزيتونة خاشعاً مكبراً إثر هذا المعهد الإسلامي الكبير، الذي حفظ اللغة والدين، وكان له الفضل الأكبر في نشر العلوم والآداب، وهو أثر فني رائع في فنون البناء والزخرفة.

تونس ومأذنة جامع الزيتونة

وإذا ما أردت التحدث عن طراز البناء في قصور البايات، وما احتوته تلك القصور من تحف وجمال وجلال فإن الحديث يطول. ويكفي القول إن مقر وزارة الخارجية الحالي، وهو أحد تلك

القصور، قطعة رائعة من الفن الراقي من فنون الهندسة والبناء المغربية الأندلسية الغني بالنقوش والقيشاني البديع الجميل، والحفر على الجبس والمرمر وقاعات هذا القصر بعضها يشابه قاعات قصري آل العظم في دمشق وحماه، وفي القصر فسقيات للمياه وأروقة أندلسية جميلة. كما أن دار المجلس التأسيسي وهي من آثار البايات الأوائل، تحوي قاعات تاريخية واحدة تنسب لها معاهدة باردو المار ذكرها.

والدار كلها أندلسية الطراز تبعث في نفس زائرها الروعة والإجلال بتأثير تلك السقوف المطلاة بالذهب، وتلك الأعمدة من المرمر والأروقة المغطاة بدقيق الحفر على الجبس، وذاك القيشاني الغالي المثمن الزاهي الألوان، الذي يكسب الدار بهاء ورونقاً أخاذاً. وقاعات العرش، وأحدها كان يتقبل الباي البيعة فيها قبل أن يخرج إلى قاعة الاستقبال، يعجز القلم عن وصف جمالها وفخامتها وما ضمته من آثار قيمة وتحف غالية.

والحقيقة أن هذه الدار العامرة بالآثار العربية الفريدة والتي لا مثيل لها في الشرق، تضيف إلى أمجاد تونس الأثرية مجداً عظيماً. وفي الطريق إلى هذه الدار مررت بقناطر للماء تشبه كثيراً حجريات نواعير حماة وهي من آثار الرومان. كما اجتزت ومررت بسور المدينة والأبواب التاريخية من آثار الحفصيين وبني الأغلب.

وإلى جانب دار المجلس التأسيسي يقوم متحف باردو، وهو متحف غني بآثار قرطاجه والرومان، وبكثير من الفسيفساء الرائعة وعديد من النقوش والصور منها، ومئات من التماثيل التي تعد من أروع ما تركته العصور الغابرة من فن النحت والتصوير في وسط قاعات تعج بالآثار الدقيقة الصنع الغالية الثمن.

مع رئيس الجمهورية

أما القصر الذي يقيم فيه رئيس الجمهورية التونسية السيد الحبيب بورقيبة، والذي قابلته ورفاقي فيه، فهو قصر كان مصيفاً للباي، حديث البناء جميله، تكتنفه حديقة غناء، وكانت المقابلة استعراضاً للعلاقات بين تونس وسورية وبين البلاد العربية ولذكريات الماضي لاجتماعات سابقة في دمشق كان الحبيب أحد خطباء حفلة تأبين المرحوم سعد الله الجابري وكنت أنا مقدمه للمنبر. وإلماماً بأحوال تونس وما حققه الرئيس وإخوانه من أهدافها في مختلف الشؤون والأمور، وما يعترضه ويعترضها من صعاب وعقبات هي وليدة ما تركه الاستعمار الفرنسي في تونس طوال 76 عاماً من آثار له، أهمها قضية الاستيطان وقضايا النقد والتجارة والأمية وتلك الحواجز بين تونس والعالم العربي والخارج.

وقد خرجت وإخواني من مجلس الرئيس مؤمنين بصعوبة طريق تونس إلى آمالها الكاملة، ولكن متأكدين أنها واصلة إليه حتماً، وأن إخواننا التونسيين عاملون ليلاً نهاراً، وبكل ما يستطيعون لتحقيق أسباب السيادة والحرية الرخاء للشعب الشقيق.

جهود إخواننا التونسيين

ومن جملة ما يسعى إليه إخواننا في تونس تحرير نقدهم وتسليم غطاءه، وإنشاء مؤسسة إصدار تونسية وطنية، وقد سارع مصرف سورية المركزي مشكوراً، بناء على توسطي بإمدادهم بمعظم النظم والقوانين والاتفاقيات الشاملة للتصفية النقدية بين سورية

وفرنسا، ولشؤون القطع وإنشاء المصرف المركزي، وتنفيذ قانون النقد السوري وتسلم مؤسسة الإصدار من بنك سورية لبنان.

وقد أجرت الحكومة التونسية المفاوضات الأولى لتحرير النقد والتجارة والجمارك والاقتصاد التونسي الذي جعله الفرنسيون مع الزمن قطعة منهم وإليهم. وقد أقامت الحكومة بنكاً جديداً للصيرفة وأعمال التسليف ساهم به عدد من كبار رجال المال والأعمال والمؤسسات التعاونية والحكومية.

ويجب أن أقول إن للأجانب من فرنسيين وطليان ويهود ومالطيين سلطاناً ظاهراً في كل مظاهر الحياة في تونس، لهذا يجب ألا نحكم على الأمور العامة في تونس حكمنا عليها في سورية، التي لم تعانِ ما عاناه المغرب وتونس من شدة وقع الاستعمار وأثره البالغ في سائر مرافق البلاد.

كلمة شكر لتونس وتمنيات لرجالاتها ومستقبلها

لقينا في تونس خير ترحاب من أصدقائنا ومن بعض رجالات الحكومة. وإذا ما سطرت كلمة لوعة وأسى على السيد علي البهلوان رئيس البلدية ورئيس الوفد النيابي التونسي إلى سورية في الصيف الماضي وهو من كبار الرجال المناضلين في سبيل استرداد حرية تونس وهو الذاكر إثر زيارته لدمشق وحلب وحمص وحماه مع إخوانه، وقد افتقدته تونس أخيراً بالسكتة القلبية، فإنما يجب علي أيضاً أن أذكر بالخير حفاوته بنا رحمه الله. هذا وقد لقينا أيضاً كل إلزام من سفيرنا السابق في تونس الأستاذ أسعد محفل ومن سفير مصر السابق الأستاذ علي كامل فهمي وهو الدبلوماسي

العريق، ومن رجال السفارتين معاً وقد أصبحتا بفضل الوحدة سفارة واحدة اليوم تعمل جاهدة في سبيل الجمهورية العربية المتحدة والعروبة، ومن أصدقاء سوريا وأصدقائنا دولة السيد محمد شنيق رئيس الوزارة الأسبق الذي اعتقله الفرنسيون ووزراءه يوم أبوا على فرنسا خداعها وعدم التسليم بحرية تونس واستقلالها الداخلي.

وكان قد زار حلب عام 1935 عندما كان رئيساً للحجرة التجارية التونسية في تونس مع صديقه معالي السيد محمد بدرة الذي يعرفه الكثير منا مناضلاً في سبيل تونس ومبعداً ومشرداً وثائراً وسجيناً ووزيراً أكثر من مرة وهو زميل لنا في مؤتمر غرف التجارة والصناعة والزراعة العربية ونائب حالياً في المجلس التأسيسي ومن خيرة رجالات تونس إخلاصاً وأخلاقاً واستقامة وحباً للعروبة ولسورية.

ولا نزال في حماة وحلب ودمشق نذكر خطبه الرائعة في الوطنية لأجل حرية تونس في ربيع 1953 وقد زارها مع وفود الغرف ضيفاً على الحكومة السورية. كما أن معالي السيد الفرجاني بن الحاج عمار وزير الاقتصاد السابق ورجال الحجرة التجارية كانوا مثال الأخوة العربية في ودهم وحبهم لإخوانهم في مختلف ديار العروبة. وكنا نشعر ونحن معهم أن زمالتهم لنا تشدنا إليهم وتشدهم إلينا في شعور باطني روحي قومي هو خالد في أثره في قلوب الفريقين.

وقد ودعناهم وغيرهم من رجال الحكم والتجارة والعلم والدين والأدب والوجاهة ومنهم معالي السيد محمد العزيز الجلولي رئيس مؤسسة الهلال الأحمر ومعالي السيد أحمد الماستيري وزير العدل والسيد سعيد الماستيري كبير أطباء تونس وعلم من أعلام الطب

العربي، وبودنا ألا يكون الوداع الأخير وأن نرى تونس قد حققت كل أمانيها مشدودة إلى شقيقاتها العربيات برباط خالد هو رباط العروبة وأن نراهم وقد منَّ الله عليهم بتحقيق ما يبغون لوطنهم من رفعة وعلاء هم الذين كتبوا أنصع الصفحات في تاريخ تونس المجاهدة الحبيبة.

إسبانيا

في مساء الأربعاء 957/12/11 غادرنا تونس من مطار العويني في طائرة أمريكية الساعة 9.20 إلى الجزائر، قطعنا في سبيلها 630 كم. ووقفنا في مطار الجزائر نصف ساعة وغادرناه في منتصف الليل، وقطعنا من بعده إلى مدريد 739 كم. ووصلناها الساعة 2 من صباح اليوم التالي في وسط أمطار غزيرة، حللنا أوتيل بلازا الحديث. ومدريد مدينة عظيمة تمتاز بساحاتها المديدة وشوارعها المستقيمة العريضة وبما جَدَّ فيها من ناطحات السحاب.

وكانت الغاية من الزيارة لإسبانيا، التعرف على أمجاد العرب في الأندلس. وقبل أن أعود قليلاً إلى ماضي تلك البلاد، وقد كان للحكم العربي فيها من الآثار ما هو خالد على الزمان، يجدر بي أن أسطر كلمة شكر واعتراف بالجميل للمفوضية السورية خاصة، وعلى رأسها الأستاذ نشأت الحسيني، الشاب الممتلئ نشاطاً وحيوية فوق ما اتصف به من وطنية سليمة وجهاد متواصل، وهو مثال الموظف المجاهد الأمين، وكذا للسفارات والمفوضيات العربية التي أكرمت جميعها وفادتنا، وكانت تتخاطفنا من حفلة لحفلة ومن إكرام لإكرام، كالسفارة السعودية وصاحبها المفضال معالي الدكتور مدحت شيخ الأرض، والسفارة المصرية بشخص السفير سيادة الأستاذ علي مرعي، والسفارة الأردنية وسفيرها سمو الأمير حسين بن ناصر، والسفارة اللبنانية وسفيرها

سعادة الشيخ سامي الخوري، وقد كانوا جميعاً ومعاونوهم الأفاضل مثال التقاليد العربية الخالدة في طبائع خيار الأمة العربية.

ويجب الا أنسى أيضاً أن أنوه بأفضال القائم بأعمال المفوضية العراقية وإخوانه، وكذا سفير تونس في مدريد السيد حسان بن الخجا، وهو من شباب العرب النيِّر ومن رجالات القطر التونسي، الذين أبلوا البلاء الحسن في سبيل تحرير بلادهم، وما زالوا يعملون...

الفتح العربي:

كان القائد العربي موسى بن نصير داهية شديد الحذر، خشي أن تكون دعوة بعض الإسبان له للفتح خديعة، لذلك أرسل إلى الخليفة في دمشق رسلاً ليرى رأيه في الأمر، واكتفى فيما بين سنة 710م. أو 91 هـ. بإرسال خمسمائة رجل بقيادة طريف، أبحروا في أربع سفن تابعة ليوليان للإغارة، ونزل طريف في الرأس المسمى اليوم باسمه، ووصل إلى الجزيرة الخضراء، ورأى بأم عينه فقدان وسائل الدفاع عن إسبانيا، وعاد في السنة ذاتها إلى إفريقيا ليعلم موسى بما كان.

وأرسل موسى أحد قواده طارق، بعد أن ورد إذن الخليفة بالاكتفاء بغزو الأندلس بفرق قليلة، وكان مع طارق البربري سبعة آلالف رجل، جلهم من البربر، أرسوا سفنهم عند الصخرة التي حملت اسمه، وتوغل بعدها في داخل البلاد فالتقى مع جيش القوط في موقع سماه المسلمون وادي بكة وانتصر طارق، وبالرغم عن أمر موسى بعدم التوغل في داخل إسبانيا، تقدم هذا القائد

متحدياً أمر موسى، وبعث الفرق والكتائب وبثها جميعاً في شبه الجزيرة، فأخضع مدينة إثر مدينة، وأرسل مغيث بن الحارس على رأس سبعمائة فارس لامتلاك قرطبة، فامتلكها ودخلها المسلمون، وجاء موسى على رأس جيش عدده 18 ألفاً إلى الأندلس ليكتب لنفسه شرف الفتح، وبلغ جبال البرينات، وكان موسى قد سجن طارقاً، ولكن الخليفة عندما بلغه نبأ ذلك، استدعى موسى إلى دمشق، ووصل المسلمون إلى جنوب الغال، ووصل عبد الرحمن إلى بوردو واستولى عليها، ولكن الفرنسيين أبدوا من الشجاعة والشدة ما ساعدهم على رد المغيرين من العرب.

ملك المسلمون ثلثي شبه الجزيرة وسموها الأندلس، وأنشأوا بها مملكة قرطبة العظيمة، التي كانت أعجوبة العصور الوسطى، والتي حملت وحدها في الغرب شعلة الثقافة والمدنية وهاجة. وابتدأ نجم الأندلس بالتألق في أيام عبد الرحمن الداخل الأموي صقر قريش، الذي نزلها عام 755م. أو 138 هـ. واستولى على الحكم في قرطبة. ولبثت هذه المدينة زهاء ثلاثة قرون قاعدة للدولة الإسلامية بالأندلس ومثوى الحركة العقلية، وسقطت في أيدي القشتاليين سنة 1236 م. أو 633 هـ.

وكانت من قبل وفي عام 1086م أو 479 هـ قد سقطت طليطلة بيد الإسبان وقد حكمها العرب مدى 371 عاماً. فكانت أول قاعدة أندلسية هامة تسقط بيد الإسبان. أما غرناطة فهي آخر القواعد الأندلسية الذاهبة من حكم العرب، وقد سقطت بالتسليم سنة 1492 م. بعد أن دام الحكم العربي فيها قرابة الثمانية قرون.

إلى طليطلة (توليدو)

قصدنا طليطلة بالسيارة وبينها وبين مدريد 75 كم. ووقفنا في مدخل القلعة أمام باب الشمس، نستعرض التاريخ من أحجار هذا الباب الأثري ومن آثار العرب الخالدة، منذ أن فتحها طارق عام 714 للميلاد، وقد كانت عاصمة القوط ثم صارت بعد الفتح الإسلامي من أعظم وأهم القواعد الأندلسية، وهي بموقعها على المنحدرات الصخرية العالية الممتدة حتى ضفاف نهر التاجه، الذي يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب، وبأسوارها الضخمة وقلاعها الحصينة، تثبت أنها من أمنع مدن العصور الوسطى.

وعلى نهر التاجه أنشئت القنطرة التي لا تزال محتفظة باسمها، أيام المنصور بن عامر سنة 997م. مكان القنطرة الرومانية القديمة، ثم جددها الفونسو السادس فاتح طليطلة. والمدينة جاثية على رابية يحيط بها سور لا تزال أقسامه العربية باقية، والأزقة الداخلية فيها تشبه أزقة مدن الشرق القديمة تماماً، في ضيقها والتوائها وتعرجها، وما فرشت به من بلاط الحجر الأسود الصغير وطراز البناء، لاسيما القديم منه كله عربي دمشقي.

وإنك لتجد الدار فيه تحوي وسطاً مكشوفاً من حوله الأروقة وبئر الماء والدلو والحبل على الطريقة القديمة، والأشجار في الوسط، والأبواب كلها شرقية التكوين، والنجارة صغيرها وكبيرها، وللكبير منه باب خوخه، ولا تزال المفروشات تحتفظ بطابعها القديم العربي، من أسرة النوم إلى المقاعد إلى غرف الطعام.

وأهم ما في طليطلة كاتدرائيتها العظمى وهي تحتل مكان المسجد القديم الجامع وقد كان هذا المسجد كنيسة قوطية قديمة فحولها المسلمون وقت الفتح إلى مسجد طليطلة الجامع، واستمر هذا الجامع قائماً يؤمه المسلمون المدجنون بعد سقوط طليطلة بيد الإسبان زهاء قرن ونصف حتى أمر بهدمه الملك فرناندو الثالث في سنة 1227م وأمر بأن تبنى مكانه هذه الكاتدرائية العظيمة، في نفس الوقت الذي سقطت فيه غرناطة، ويوجد في الكاتدرائية لوحة كتب عليها بالإسبانية: في سنة 1492 فتحت غرناطة وكل ممتلكاتها على يد الملكين فريندانـد وإيزابيلا، وفي نفس هذا العام في نهاية شهر تموز أخرج جميع اليهود من جميع ولايات قشتالة وأراجون وطليطلة، وفي السنة التالية كان إتمام هذه الكنيسة.

ويوجد تحت القبة الكبرى نقوش خشبية مصورة تمثل قصة حصار غرناطة وافتتاحها ويبدو فيها فرسان معممون هم الفرسان المسلمون كما تبدو مناظر الحمراء وقلاعها وتبدو صور الملك فردينانـد والملكة إيزابيلا كل على جواده وتسمى هذه النقوش افتتاح غرناطة في عصر الملكين الكاثوليكيين، وتعتبر من أقيم ما يزادن به صحن الكنيسة. على أن أهم ما يثير طلعة الباحث بين ذخائر كنيسة طليطلة هو علما السلطان أبي الحسن المريني اللذان غنمهما الإسبان في موقعة سالادو أو موقعة طريف وهي الموقعة التي نشبت بين الإسبان وبين الجيوش الأندلسية والمغربية بقيادة السلطان يوسف أبي الحجاج والسلطان أبي الحسن المريني الذي عبر إلى إسبانيا لنجدة المسلمين وذلك في 30 تشرين أول 1340م

وهُـزِمَ فيهـا المـسلمون هزيمــة فادحــة. وقــد علــق هــذان العلمــان الإسلاميان على جدران القاعة المعدة للثيـاب المقدسـة وأولهمـا عبـارة عن سجادة كبيرة مذهبة الجوانب طولها 3.70متراً وعرضها 2.20 وعليهما كثير من الآيات والحمد والعبارات. وتاريخ الصنع في عام 740 هجرية في المدينة البيضاء وفي مدينة فاس.

ومن أهم صروح طليطلة القديمة التي تتصل بالعصر الإسلامي (القصر ALCAZAR) وهو بناء قديم ضخم شُيِّد على صخرة عالية تطل على نهر التاجه أمام قنطرة (القنطرة) وكان أيام الرومان حصناً فجدده ملوك القوط ثم جُدد أيام المسلمين وأنشأ به الحكم بن هشام أمير الأندلس في سنة 797 م قلعة منيعة لضبط مدينة طليطلة وقمع ثوراتها وكانت تستعمل حصناً ومقراً للحاكم، وقد حولت فيما بعد إلى ما يسمى اليوم (القصر) وقد استعمله الإسبان كقلعة لحصانته، ثم حوله ملوكهم إلى قصر للإقامة فيه. ولعب في الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة دوراً هاماً حيث اعتصم به المليكون أنصار الجنرال فرانكو واستطاعوا الدفاع عنه حتى تم لهم الظفر على الجمهوريين.

العودة إلى مدريد

وفي العودة إلى مدريد لقينا كثيراً من الآبار في الطريق عليها دواليب الاستخراج تديرها الخيول كما كانت عليه آبار المعرة قبل استعمال المحركات عليها أخيراً. كما شاهدنا لافتات في طريقنا تشير إلى مكان بلدة (البرج ALBORJE) التي ما تزال محتفظة باسمها منذ العهد العربي. كما شهدنا النساء القرويات يحملن قلل

المياه على رؤوسهن في طريقهن إلى المنازل كما يفعل نساء القرى في بلادنا. وكذلك عربات الأثقال تجرها البغال والخيول وراء بعضها البعض وكأننا في أحد شوارع الميدان في دمشق. وكذا الحمير المعدة لنقل الأوساخ والفضلات من الشوارع وعليها (الشليف) المعروف عندنا بذاته.

وفي اليوم الثاني قمنا بزيارة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد الذي يؤدي للعرب والإسلام والإسبان ولكل مستشرق أجل الخدمات، ومديره الأستاذ حسين مؤنس يسهر على أداء واجبه كجندي في حومة الوغى دون ملل أو كلل. وفي هذا المعهد تعرفت إلى الأستاذ محمد عبد الله عنان الذي استمدُّ من كتابه الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ضبط حوادث العرب ومخلفاتهم في حديثي هذا. ثم زرنا متحف مدريد وفيه أغنى اللوحات الزيتية الخالدة والكثير من تماثيل الرومان، والمتحف بعظمته وقيمته الفنية لا يوفيّه أي وصف مهما طال وأفصح.

وبعد الظهر قمنا بزيارة مدينة أراخويز وتبعد 47 كم. عن مدريد، والمدينة قائمة على نهر وبها حدائق وتحوي قصراً ملكياً فخماً يدعى Palacio Aranjuez فيه آثار ملوك الإسبان الفخمة من قاعات نوم واستقبال وأكل مع أبهى الصور وأثمن الرياش، والجدران كلها مليئة بصور زيتية خالدة فيها الصالون الصيني المشهور الذي هو أفخم قاعة من نوعه يقف الإنسان أمامها حائراً من عظمة الفن وقدرة اليد التي أبدعته.

كما توجد بين تلك القاعات قاعة تدخين عربية على الطراز الأندلسي ومقاعد شرقية وقبة عالية وهي آية في فن العمار من

القيشاني ومختلف النقوش ويرجع تاريخها إلى سنة 1850. كما يحوي القصر قاعة تضم رسوماً ثمينة لملوك الإسبان وآخرهم الفونسو الثالث عشر لجانب متاعهم وأشيائهم ومكاتبهم وغرف نومهم وكلها ذات قيمة لا تقدر.

ويوم السبت في 14/ 12/ 1957 زرنا القصر الملكي (اوريانتي) في مدريد وهو قصر فخم كقصر فرساي في فرنسا فيه من القاعات والغرف الساحرة، والغنية بالتحف والصور والأثاث والرياش الفاخر الملكي ما يحير الفكر، وكذا قاعة العرش وقاعة الطعام التي يستخدمها اليوم رئيس الحكومة الإسبانية، في المآدب الرسمية الكبرى، لضيوف إسبانيا من الملوك والرؤساء. وفي القصر غرف من «البرسيلان» عظيمة حقاً وكذلك غرف صينية تمتاز بتلك النقوش البارزة فيها.

الاسكوريال

وبعد توجهنا إلى الاسكوريال El Escorial وهي شمال غرب مدريد، تبعد حوالي 47 كم. عنها في طريق معبدة عريضة، وهي مصيف عال تكتنفه الجبال المكللة بالثلوج. والقصر يحوي كنيسة تاريخية عظيمة، وقبور البانتيون الإسبان للعائلات المالكة ولعظماء رجال الدين. كما أن في البانتيون قبة تحت الأرض، جدرانها موضع لنعوش الملوك وفي داخلها الرفات، وهذه النعوش كلها حجرية صنعت بمهارة وحذق عجيبين وعليها الكثير من جيد النحت والنقوش والرموز.

وفي القصر أيضاً دائرة سكن بعض الملوك الإسبان، وفيها على الجدران من السجاد شغل الإبرة في منتهى الإبداع والروعة والتصوير، وفيها من القيشاني والصيني أيضاً ما يزيد في روعة هذا الأثر. وكذا الأسرة وقاعات الطعام. وفي المتحف أيضاً صور زيتية خالدة دينية، وأردية رجال الكهنوت القدامى وأسرتهم التاريخية.

وفي المكتبة توجد أضخم مجموعة من الكتب التي حرص رجال الدين على جمعها من مختلف الأنواع والمصادر واللغات والعهود، ومن جملتها كتب عربية ومصاحف مخطوطة، هي في غاية من الذوق وحسن الخط والتصوير والتزيين. وأحد الكتب هو في الطير، يصف القطا خير وصف، ويقارن بينه وبين الدارج، ويصوّر القطا صوراً حسنة رائعة مما يدل على أن التصوير في الأندلس لم يكن ينظر إليه كما ينظر إليه بعض رجال الدين.

وفي الكلام على القطا، يصف المؤرخ كيف يختزن هذا الطير الماء في جوفه ليسقي به فراخه إلى غير ذلك، والحقيقة أن الاسكوريال مجموعة من الآثار الخالدة التي لا تقدر بثمن مادي.

جولة ليلة

وفي المساء حضرنا إحدى حفلات مسرح Galderon وسط مناظر بديعة، سمعنا آيات الغناء الإسباني والرقص الإسباني القريب من الرقص العربي، وكانت أنطونيتا Antonita Morena الفنانة الإسبانية المشهورة مجلية في إظهار بديع صوتها العذب، وحسن تمثيلها فيما أدته من فصول، وفي أناقة ثيابها وجمالها، وكل ذلك في منتهى الحشمة والأدب والذوق.

كما قدر لنا أن نحضر أيضاً سهرة في مقصف صامبرا Zambra لنشهد رقص الغجر الإسباني القديم المسمى Jonda، وقد شهدنا فصلين رائعين من الموسيقى الغجرية القائمة على البزق باليد والتصفيق باليد بالراحات بتواقيع موسيقية، وكان الرقص الفريد من نوعه ذو الوقع الشديد على الأرض، وهزات أجزاء الجسم القوية العنيفة، رائعاً حقاً، وكان الفنانون والفنانات جالسين على المسرح على الراسي في نصف دائرة، وسحنة أولئك الغجر واحدة، هي ذات سحنة وتكوين أبناء قومهم في بلادنا.

إلى إشبيلية:

ويوم الأحد في 15/ 12/ 1957 شددنا الرحال بالطائرة إلى إشبيلية، وصلناها بعد ساعة ونصف، وهي مدينة مشرقة جميلة تتخللها حدائق البرتقال والليمون فتكسبها بهاء ورونقاً. وهي تبعد عن مدريد 550 كم. قريبة من البحر الأطلنطي، وتقع على نهر الوادي الكبير، ويسميه الإسبان quivir–Ria Guadal وتبعد عن ثغر قادس نحواً من 136 كم. وعرفت يوماً ما في أيام العرب باسم «حمص» لأن أجناد حمص كانت في طليعة الجيوش الإسلامية التي دخلتها.

وكانت إشبيلية أيام الدولة الإسلامية، أعظم مدن الأندلس وأجملها، بل كانت أعظم وأجمل من قرطبة ذاتها، وقد سطعت أيام بني عباد، إذ كانت دار الملك وغدت أيام الموحدين مركز الحكم مرة أخرى، وسقطت في أيدي القشتاليين سنة 1248م. أو 646هـ. أي بعد سقوط قرطبة باثني عشر عاماً.

وجمال إشبيلية أكبر من أن يوصف، وليس فيها اليوم من الآثار الإسلامية سوى القليل. وتحتفظ فقط بدرتيها الإسلاميتين الفريدتين، وهما منارة مسجدها الأعظم و«القصر» ذو الطابع الإسلامي الفريد. والمسجد لم تبق منه وحدة قائمة بذاتها، فقد أزيل وأقيمت مكانه كنيسة إشبيلية العظمى، التي تعتبر بضخامتها وفخامتها ثاني كنيسة في العالم بعد كنيسة القديس بطرس. ومن الجامع لم يبق قائماً اليوم سوى صحنه القديم ومنارته.

وقد قام بإنشاء هذا المسجد خليفة المسلمين أبو يعقوب يوسف الموحدي سلطان المغرب والأندلس في سنة 1172، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وأتمه ولده المنصور وأنشأ منارته الشهيرة التي ما تزال قائمة ويعرفها الإسبان باسم (لاخيرالدا) وارتفاعها ستة وتسعون متراً، وهي إحدى منارات ثلاث متشابهات من طراز واحد وفي عهد واحد، أما المنارتان الثانيتان فهما منارة حسان في الرباط التي لم تكمل، والمنارة الكتبية في مراكش.

ولم يبق من مسجد إشبيلية إلا صحنه، وهو ما يزال يحتفظ بشكله وموقعه القديم، وفي وسطه نافورة أندلسية، وكذلك بقي باب الجميع الرئيسي كما هو بعقده وزخارفه البرونزية الإسلامية، وقد نقشت على كلتا قبضتيه الضخمتين ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد. ويبلغ عرضه نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة، والمنارة الآنفة الذكر يصعد إليها من الداخل بواسطة ممرات منحدرة صاعدة مرصوفة بالآجر تبلغ نحو الثلاثين، وبها في ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجانبية لها نوافذ ومشرفيات عربية، زينت واجهاتها بنقوش عربية

ومغربية بديعة، وتعلو هذه الطبقات الأربع طبقة خامسة ذات أروقة ومشرفيات عالية، والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين، ثم تأتي بعد ذلك الطبقة الأخيرة، وهي اليوم برج أجراس الكنيسة، ذلك أنه قد وقع في الثلث الأعلى من المنارة تغيير عظيم، حيث أزيلت سارياتها الإسلامية المذهبة «التفافيح» والقسم الذي يليها من الأسفل، وأبقي هيكلها الرئيسي بطبقاته الخمس على أصله، ثم بنى الإسبان فوقه في أواخر القرن السادس عشر برج الأجراس من طابقين، ونصبوا فوق البرج تمثالاً برونزياً للإيمان ارتفاعه نحو خمسة أمتار.

والتفافيح الضخمة الثلاث «الساريات» كانت الوسطى منها بالغة الضخامة، قام برفعها إلى أعلى المنارة المعلم أبو الليث الصقلي، وموهت الساريات الثلاث بالذهب بما قيمته مائة ألف دينار.

ولأعد إلى ذكر شيء عن القصر في أشبيلية فأعيد ما قاله الأستاذ عنان في كتابه الآنف الذكر من أن كلمة (القصر) في إسبانيا أصبحت علماً يطلق على الصروح أو القصور الملكية الإسلامية، وبالرغم من أن قصر أشبيلية معظمه من إنشاء الملوك الإسبان فإنه يسمى كذلك لأنه أقيم على بقايا قصر إسلامي سابق وعلى الطراز الأندلسي. والقصر طابقان عظيمان، الأول يبدو في معظمه أندلسي الأصل وإن كانت قد أضيفت إليه أبنية حديثة من إنشاء ملوك إسبانيا، والطابق الأعلى كله من صنع إسباني أجري تقليداً للنمط الأندلسي.

ويظهر أن واجهة مدخل القصر من بقايا قلعة أندلسية قديمة ينمُّ عن ذلك طرازها ومشارفها العربية. وتقوم، بعد الفناء الذي يلي المدخل، ثلاثة عقود قديمة يبدو أنها أيضاً من عقود الصرح الأندلسي القديم. والطابق الأول يحوي عدة أفنية وأبهاء وهي قاعة العدل، فناء الصيد وفناء العذارى وبهو كارلوس الخامس وبهو السفراء وجناح الملوك الأندلسيين وجناح الملوك الكاثوليك. وأهم وأبدع هذه الأبهاء بهو السفراء وهو بهو شاسع فخم تظلله قبة عالية جداً معقودة على عمد ومقرنصات عربية بديعة، وجدرانها مكسوة بالقيشاني الفخم تتخلله نقوش عربية مقلدة في الغالب. وفي هذه الطبقة السفلى يبدو الطابع الأندلسي الأصيل قوياً، وفي كثير من الأبهاء بعض الآيات القرآنية وهي مقلدة منقولة عن نظائرها في بعض الصروح الأندلسية المعاصرة. ففي أبواب قاعة السفراء نقشت عبارة (الملك لله) يميناً ويساراً على مصاريع الأبواب، وفي الجزء الأعلى نقشت هذه العبارة: أمر مولانا المعظم المرفع ضن بضر، ملك قشتالة وليون، أدام الله سعده وهنَّئَ أيامه بعمل هذه الأبواب الجديدة لهذه البقعة السعيدة بما أجلب من العزة والرفعة من حشد السرور والسعود. وفي هذه اللوحة بالذات توجد عبارة (ولا غالب إلا الله) وهي شعار بني نصر ملوك غرناطة منقوشة ثماني مرات بخط كوفي جميل.

ولا تزال بقايا الأسوار الموحدية باقية في بعض جنبات أشبيلية، أما حدائق القصر العظيمة اليانعة وهي منسقة على الطراز الأندلسي فإن بها الكثير من النخيل العربي، والظاهر أن هذه الحدائق أقيمت مكان حدائق القصر القديمة.

ويقول المؤرخون والكتاب الإسبان أن لأشبيلية اسماً سحرياً يعود إلى ماضيها العربي، ولقد أخذت بهذا السحر منذ أن وطأت قدماي أرض مطار المدينة وجال بخاطري وأنا أتجول في أبهاء القصر الحكم العربي في إبان ازدهاره، وكأن خيال المعتمد بن عباد كان ماثلاً أمام ناظري فيعكس في فؤادي غصة على تلك المدينة الزاهرة المنقرضة وما كانت عليه تلك الآثار الباقية وما حوته من بديع فن البناء والنقوش على الجبس وتلك الأبواب الخشبية للمنافذ والشبابيك والخشب المحفور وغرف حريم الملك العربي وهي عشر على ما يقول الإسبان حيث لكل زوجة حجرة ولكل حجرة نافذة تطل على البهو العظيم وعلى الحديقة الأندلسية، وتلك الأكشاك الشرقية الدقيقة الصنع (كأنني في دمشق) وتلك الحجر لنوم الملوك العرب التي لا أبواب لها وإنما كانت الستائر هي التي تغطي الأبواب. ما كان كل تلك الآثار وما تنطق به من جلال وروعة لتنسيني الحقيقة المرة القائلة: كنت يوماً ملكاً عربياً عالي الشأن ولكني اليوم حلم وعظة وذكرى.

إلى قرطبة

وفي صباح يوم الاثنين في 16/ 12/ 1957 قمنا بالسيارة إلى قرطبة والمسافة إليها 140 كم. قطعناها في طريق وسط سهول مكسوة بالزيتون والزراعات الشتوية في أرض خصبة جداً. والطريق معظمها عريضة معبدة. ومررنا بعدة مدن ظاهر من معالمها أن بها آثار حصون عربية ومساجد حَوِّلَتْ إلى كنائس أو عادت لحالتها السابقة. وقد قضينا ساعتين للوصول إلى قرطبة وقد اجتزنا الوادي

الكبير في مداخلها، وفي أول الجسر مدخل برج عال من آثار العرب وسارعنا إلى الجامع الحزين نطفئ الشوق إلى الأثر الخالد من آثار المسلمين في الأندلس وإن كانت قد غيرت الأحداث الكثير من معالمه أو حولت مواقعه جميعاً إلى كنائس جامعة وكاتدرائيات.

ولبثت قرطبة، حتى بعد انهيار الخلافة فيها، تحتفظ في ظل الطوائف ثم المرابطين والموحدين بكثير من هيبتها الخالدة كقاعدة رئيسية من قواعد الإسلام في إسبانيا وكان لسقوطها أعظم وقع في الأندلس وفيما وراء البحر. ومع أن مجتمعها الإسلامي التالد أخذ ينهار منذ سقوطها بسرعة، وقد غادرها أكثر سكانها المسلمين ولا سيما الأشراف فراراً إلى القواعد الإسلامية الأخرى فقد بقي بها في ظل القشتالين كثير من المسلمين الذين (تدجنوا) - من تدجن أي ألف واستأنس وعاش تحت حكم الإسبان - ثم فقدوا بمضي الزمن وحكم الاندماج خواصهم ودينهم ولغتهم. ولم يمض زهاء قرن أو قرنين حتى كان المجتمع الإسلامي في قرطبة قد غاصت آثاره الأخيرة. ولم يبق بها اليوم، إذا استثنينا مسجدها الجامع القديم، ما يذكرنا بماضيها الضخم وتكاد قرطبة إذا استثنينا أيضاً بعض الدروب المحيطة بالجامع ولها ما يشابهها في أشبيلية التي تحاكي دروب دمشق القديمة ومنعطفاتها وأكشاكها، تكاد تخلو من كل أثر للطراز الأندلسي القديم. ودخلنا جامع قرطبة أو La Mezquita Aljama الذي تحيط به الدروب الضيقة من جوانبه الأربعة وتبدو على

جدرانه وواجهاته الخارجية آثار الإهمال والقدم. حتى إذا بلغنا فناءه الواسع واجهنا الأثر الذي هو من أبدع الآثار الأندلسية الباقية.

إنشاء جامع قرطبة

بدئ بإنشاء مسجد قرطبة في سنة 170هـ أو 786م. على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وكان موضعه كنيسة قوطية، وأراد عبد الرحمن أن يكون مسجد قرطبة أعظم مساجد الأندلس وأفخمها، فجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المموه، وتوفي قبل إتمامه فأتمه ولده هشام وأنشأ به منارته الأولى، وزاد فيه عبد الرحمن ابن الحكم بهوين جديدين، وأنشأ فيه محمد بن عبد الرحمن مقصورة فخمة، وجدد عبد الرحمن الناصر واجهة الجامع وهدم منارته القديمة وأنشأ منارة مكانها أرفع وأضخم، تحوي سلمين أحدهما للصعود والآخر للهبوط، وفي أعلاها ثلاث تفاحات اثنتان من الذهب وواحدة من الفضة، ثم زاد فيه الحكم المستنصر زيادات كبيرة فابتنى المحراب الثالث واستغرق بناؤه أربعة أعوام، وعملت له قبة فخمة زخرفت بفسيفساء بديعة استقدم لها الحكم خبيراً من القسطنطينية، وأرسل له قيصرها هدية بقدر كبير، وزاد بعد ذلك خلفاء الحكم في مساحة الجامع وبلغت عمدة الألف ومائتين، وأبوابه البرونزية العديدة ومحاريبه الفخمة وزخارفه البديعة، تجعله من أعظم المساجد الجامعة في العالم الإسلامي.

ومساحة الجامع نحو 50 فداناً، وكان للجامع قبلاً تسعة عشر باباً طليت بالنحاس الأصفر، وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه، وصب في سواريه الذهب الأبريز واللازورد. أما المنبر فقد

صنع من العاج ونفيس الخشب، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة، رصع أكثرها بالأحجار الكريمة، وسمر بمسامير من الذهب، وبنيت دور إلى الجانب الغربي من المسجد لنزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل. وفي المسجد مئات من الثريات التي صنعت في حينها من نحاس أجراس الكنائس وكان بالمسجد ثلاثمئة خادم لإيقاد البخور من العنبر والعود.

وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة، ويحار النظر في تأمل عقوده وأعمدته المتقاطعة التي لا تدرك العين نهايتها، وتبلغ عقوده في الطول تسعة وعشرين، وفي العرض تسعة عشر، ويبلغ ارتفاع سقفه نحو اثني عشر متراً، وقد أزيلت القباب القديمة من الجامع ما عدا القبة الرئيسية الوسطى، وحلت محل القباب سقوف مضلعة.

والمحراب الباقي فخم مزين بالنقوش والآيات القرآنية، ومن جملتها بسم الله الرحمن الرحيم، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، أمر الإمام المستنصر بالله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله بعد عون الله فيما شيده من هذا المحراب، بكسوته بالرخام رغبة في جزيل الثواب وكريم المآب، في شهر ذي الحجة من سنة 354هـ.

ويقول المؤرخون الإسبان في أصل جامع قرطبة، أنه كان في قرطبة كاتدرائية باسم San Vicente. وفي سنة 748م. أجبر المسيحيون الإسبان، الذين كانوا يعيشون إلى جانب المسلمين على التنازل عن نصف الكاتدرائية المذكورة إلى المسلمين، حيث اجتمع أصحاب المذهبين في معبد واحد، ولكن في عام 785

اغتصب عبد الرحمن الأول القسم الثاني من المسيحيين، حيث شيد الجامع موضوع البحث.

ويقول المؤرخون العرب، إن القسم الذي كان يشغله المسيحيون، كان تحفة من تحف الفن، وأن المهندسين العرب لم يهدموا سوى خمس باحات من الكنيسة الكبرى وذلك بتبديل اتجاهها، وقد استعملت جميع المواد البنائية القديمة.

ووقفنا في حرم الجامع وأمام المحراب خاشعين لله وللتاريخ، نجيل النظر في أخشاب السقف وكلها من الأرز، ونتطلع إلى القيشاني الجميل وإلى تلك الأعمدة ولم يبق منها غير 850 عموداً، وإلى تلك الكنائس العديدة التي ملأت جوانب الجامع، وإلى تلك الأروقة وما سد منها والذي ما زال من الأبواب أيضاً، وإلى محال الوضوء الباقية، وإلى بيوت المدرسين والعلماء، وإلى المئذنة التي تحولت إلى منارة أجراس، فتتملكنا الدهشة التي يتعرض لها كل من يرى هذه البقية من الآثار التي تدل على عظمة الماضي.

وكأن روح عبد الرحمن الداخل كانت تلاحقنا وهي أسيرة في محبس هي غريبة فيه، بعد أن كانت تملأ الأجواء عزة وجبروتاً وأمجاداً، لتستنطقنا حال الأرض التي منها هاجرت إلى تلك البلاد. والحقيقة أن روعة الجامع هي فوق كل وصف، وأثره في نفس زائرة تبعث على الاحترام لذاك الماضي المجيد.

ويحكى أن شارلكان ملك فرنسا وألمانيا وإسبانيا الذي أمر ببناء إحدى الكنائس في داخل الجامع، أسف كثيراً عندما زار الجامع ورأى عظمته الهندسية وقال لعامله أنه كان يود أن تبقى للجامع هيبته وقيمته الفنية وأن تبنى الكنيسة في مكان آخر

محاشاة لانتقاص جمال الجامع. هذا ما قاله المؤرخون الإسبان الذين أثبتوا أيضاً أن آثار الفن الهندسي في قرطبة ومتحف مدينة الزهراء، تعبران أحسن تعبير عن عظمة الفنون في عهد الخلفاء، وتفوقها على الفنون الأوروبية في القرن العاشر.

ويقول المؤرخون العرب أنه كان يوجد في قرطبة أكثر من 900 حمام لاستقبال عامة الشعب الإسلامي. وكما يقول المؤرخون الإسبان أن الازدهار قد بلغ قمته في عهد الحكم الثاني، الذي كان خليفة ذكياً عالماً، جمع مكتبة غنية تحوي أكبر عدد من الكتب العالمية، وأنه شجع العلوم والفنون والهندسة.

وخرجنا من جامع قرطبة نودع التراث الخالد بدمع سخي، علم الله أنه مستقى من أعماق الفؤاد على أمجاد العرب الماضية، لنقف أمام الباب الوحيد، الباقي من أبواب قرطبة القديمة، وهو المسمى باب المدور Puerta de Almadovar، وهو يقع في جنوب غربي المدينة على مقربة من الجامع.

ولم نكن نملك من القوى ما يمكننا من زيارة المتحف الأركيولوجي، وقد جمعت فيه طائفة من اللوحات والأحواض الرخامية والزخارف العربية، وكثير من القطع الخشبية المطبوعة بالآيات القرآنية ومعظمها مأخوذ من الجامع، لأنا كنا محطمي الأعصاب بتأثير مشاهدتنا لتلك السجادة الأثرية في متحف داخل الكنيسة في الجامع والتي تصور أمير قرطبة يسلم مفاتيح البلد إلى فاتحها القائد الإسباني، وبجانبه زميل له يقبل أقدام القائد المذكور، المملوء زهواً واعتداداً وفخاراً، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

الزهراء

وغادرنا قرطبة وفي نفسنا حنين لزيارة معالم مدينة الزهراء ومدينة الزاهرية، المدينتين اللتين تحتلان مقاماً ملحوظاً في تاريخ الأندلس المعماري، وقد بدأ الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله (300 - 350)هـ بإنشاء الزهراء كضاحية ملوكية لقرطبة عام 936م وأكملها ولده الحكم المستنصر. وكان المهندسون المسلمون الذين أشرفوا على إنشاء هذه المدينة الجديدة ثلاثة من أشهر مهندسي العرب وهم: عبد الله بن يونس وحسن بن محمد وعلي بن جعفر المصري، واستغرق بناؤها 25 سنة بيد عاملة قدرها 25 ألف عامل، وأتت المدينة روعة في جمالها وكانت قاعة الخليفة وسقفها مغطاة بالفسيفساء المذهب وحواجزها من المرمر الشفاف وحوضها في الوسط مفضض وتتدلى من السقف لؤلؤة كبرى مهداة من امبراطور القسطنطينية.

نعم كان في نفسنا حنين لزيارة أطلال مدينة هذه الضاحية لولا خشيتنا من النكسة التي قد تصيبنا عندما نفكر بأن هذا الأثر النادر قد خربته الحوادث السياسية والخلافات بين حكام المسلمين وما تعرضت له المدينة من موجات الغزو والنهب التي تتابعت قادمة مع الغزاة الإفريقيين من البربر الذين لم يبقوا على شيء.

وكانت أفكارنا في ذاك الحين ونحن نغادر قرطبة متجهة نحو ابن رشد أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته، ويودنا لو نعلم المكان

الذي ولد فيه هذا العالم الكبير في أرض قرطبة لنحج إليه ونناجيه ولكن أين نحن من هذا ، والديار غير الديار والأهل غير الأهل.

إلى غرناطة

واتجهنا من قرطبة إلى غرناطة والمسافة بينهما 172كم في طريق كلها جبلية وعالية ومكسوة بأشجار الزيتون التي لا حدَّ لها ، ومررنا بعدة مدن وكم رأينا قلاعاً وحصوناً ربما تكون أكثرها من بقايا القلاع الإسلامية ، وتناولنا غذاء بسيطاً في بلدة تسمى القلعة (Al-Cala) وهي مدينة صغيرة بجانب قلعة حولها سور وآثار إسلامية.

ووصلنا غرناطة بعد مسير ثلاث ساعات ونصف وحللنا في فندق الحمراء وهو فندق فخم بني بالقرب من قصر الحمراء يشرف على مدينة غرناطة من عليائه وقد بنيت قاعاته على الطراز المراكشي المغربي كما أخذت بعض القوالب البنائية عن قصر الحمراء وأدخلت في بعض جدران وسقوف الفندق فكان فيها الكثير من عبارات: لا غالب إلا الله ، وما النصر إلا من عند الله.

غرناطة وحمراء غرناطة

ومعناها بالإسبانية (الرمانة) وهي شعارها التاريخي ، وحمراء غرناطة هي بلا ريب أعظم آثار الأندلس الباقية وهي ما زالت كما كانت منذ عصور ، تشرف بأبراجها وقبابها المنيفة من هضبتها العالية على المدينة الإسلامية القديمة من ركنها الجنوبي الشرقي فتسبغ عليها آيات من الروعة والجلال.

وكان أول ما تضطرم به مخيلتنا أن نرى درة الآثار الأندلسية الفريدة قصر الحمراء الذي حرف الإسبان اسمه فأصبح يعرف في العالم الغربي باسم Alhambra.

وبعد أن اجتزنا (باب الرمان) الذي بني في عهد الإمبراطور شارلكان، استقبلتنا غابة رائعة تضم ثلاثة طرق عريضة يفضي الأول إلى (الأبراج الحمراء) والثاني إلى قصر (جنة العريف) والثالث إلى (باب الشريعة) أول أبواب الحمراء وقد كان مجازاً لذوي المظالم. وفي الساحة التي تليه كان يجلس السلطان أو نائبه للفصل في المظالم في يوم معين جرياً على تقاليد خلفاء الأندلس وملوكها السابقين.

ويبلغ ارتفاع باب الشريعة نحو خمسة عشر متراً ونقش على قوسه بخط أندلسي متشابك ما يلي: (أمر ببناء هذا الباب المسمى «باب الشريعة» أسعد الله به شريعة الإسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف بن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافأ الله في الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فتيسر ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية) ويوافق هذا التاريخ سنة 1348م. السلطان الحجاج هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة حكم من سنة 1333 إلى 1354م وهو الذي شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء.

وأخيراً وقفنا أمام قصر الحمراء قبلة الرواد من سائر أنحاء الأرض، ولسان حاله يقول لنا: أجل هنا كانت ثمة مملكة وثمة

ملك وعرش، وبين جدراني كان يقيم سلاطين آخر مملكة إسلامية استمر تاريخها يدوي في الآفاق زهاء مائتي عام، عنوان مدنية زاهرة تركت آثاراً خالدة، ثم كنت قبراً لهذه المملكة، عندما وقع في أحد أبهائي أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس ووزراؤه معاهدة تسليم غرناطة والحمراء وحكموا بذلك على دولتهم بالمحو وعلى أمتهم بالفناء.

منشأ الحمراء وقاعاتها:

وبين هذه الجدران الصامتة التي يكاد الأسى يرتم على زخارفها ونقوشها العربية يضطرم الخيال بهذا المصير، غالبنا الدمع ونحن نجوس خلال تلك الأبهاء الملوكية الفخمة وعبارة (ولا غالب إلا الله) شعار بني نصر ملوك غرناطة تتمثل أمامنا في كل واجهة وركن.

ويعود بنا التاريخ، إلى قيام الحمراء في القرن الرابع للهجرة يوم أنشأ باديس ابن حبوس زعيم البربر سوراً منيعاً حول الهضبة التي تقع عليها قلعة الحمراء، وأقام داخله قصراً ومركزاً لحكومته وسميت بالقصبة الحمراء، ثم لما استولى محمد بن الأحمر النصري على غرناطة سنة 635هـ 1238م اتخذ مركزه في (القصبة) وأنشأ داخل أسوارها قصره المحصن الذين أطلق عليه اسم الحمراء القديم، واتخذه قاعدة للملك وجلب إليه الماء من نهر حدره. وفي أواخر القرن السابع الهجري انشأ محمد بن محمد الأحمر ثاني سلطان غرناطة الملقب بالغالب بالله، الحصن الجديد والقصر الملكي، وأنشأ ولده محمد إلى جوار القصر مسجداً هو الذي

تحتل موقعه اليوم كنيسة سانتا ماريا. ثم جاء السلطان أبو الوليد إسماعيل فزاد في القصر وفي تجميله. بيد أن الحمراء تدين بفخامتها وروعتها إلى ولده السلطان يوسف أبو الحجاج المار ذكره، وهو الملك الشاعر والفنان الموهوب الذي بنى معظم الأجنحة التي ما زالت تسبغ على الحمراء روعتها الخالدة.

وتقع الحمراء فوق هضبة مرتفعة طولها 736 متراً وعرضها 200 متر ويحيط بها سور ضخم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة. ويتخلل السور عدة أبراج وأبواب بقي معظمها إلى اليوم، وأهم أبراجه الباقية هي برج الحراسة وبرج قمارش وبرج العقائل وبرج الأميرات وغيرها.

والجناح الأول هو أول ما يراه الزائر وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة أو فناء الريحان Patiodelas Arrayanes وهو فناء كبير مستطيل مكشوف تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان وقد نقشت في الزوايا العبارة الآتية: النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين، والآية: وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. كما يوجد على يمين الباب الشمالي المفضي إلى البهو المجاور أبيات أولها:

فلو خيّر الإسلام فيما يريده لما اختار إلا أن تعيش وتسلما

ويفضي باب فناء الريحان الشمالي إلى بهو صغير يسمى بهو البركة، به قبلة زينت بنقوش جميلة. أما بهو السفراء فهو أعظم أبهاء الحمراء لسعته وارتفاع قبته الشاهقة وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم، ولا يمكن وصف جماله. وفيها الكثير من الشعر والآيات القرآنية، واسم مولانا أبو الحجاج عن نصره، ثم

فنـاء الأسـود أو كـورة الـسباع، وقـد قـام بإنـشاء هـذا القـصر أو الجنـاح، الـسلطان محمـد الغـني بـالله الـذي تـولي العـرش في سـنة 755هـ 1354م. والذي ما زال اسمه ماثلاً في مواضع كثيرة من هـذا الجنــاح، ويعتـبر فنــاء الأسـود بطـرازه المـصقول وقبابـه المـضلعة وأعمدته الرشيقة وزخارفه البديعة ونافورتـه الفريـدة، الـتي تحملـها الأسود الاثنا عشر أروع أجنحة الحمراء وأوفرها رواء وسحراً.

وننتقـل إلى قاعـة بـني سـراج الـتي تنـسب إلى الأسـرة الغرناطيـة الشهيرة، التي لعبت دوراً كبيراً في حوادث غرناطـة الأخيرة، وهـي قاعة تعد آيـة مـن آيـات البنـاء والزخـارف العربيـة والخـشب المعقـود، وقد نقش في جدار الصدر هذان البيتان:

تبيـتُ لـه خـنش الثريـا معيـذةً ويـصبح معتـل النواسـيم واقيـا

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تكُ في أفق السماء جواريا

ثـم ننتقـل إلى قاعـة الملـوك أو قاعـة العـدل ومجلـس الـسلطان الخليفـة، ثـم إلى الحمامـات ذات المـصاطب للاسـتراحة والجـرون الكبيرة الـتي تحـل محـل المغطـس والقمريـات، وغـرف نـوم الخليفـة والحـرم الـسلطاني، ومحاريـب الـصلاة تـستقبلك بآيـات وحكـم بينات: أقبل على صلاتك ولا تكن من الغـافلين، فـالله خـير حافظـاً وهو أرحم الراحمين. وخرجنا من الأبهاء إلى الحدائق، وفي أطرافهـا مـساكن العلمـاء والعمـال والمرافقين والحجـاب، وكلـها تطـل علـى غرناطة من عل.

الاستيلاء الإسباني:

وزرنا بعدها برج الحرس الذي ما زال يرفع عليه الصليب الذي كان رفعه علامة الاستيلاء الإسباني على القصر العربي وتسليم غرناطة، حيث في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني 1491م. 897هـ. امضيت شروط التسليم ودخلت جيوش الإسبان الحمراء.

وبينما كان فرديناند وإيزابيلا يركعان على ركبتيهما يحمدان الله على هذه الغلبة ويسجد خلفهما الجيش كله، وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة في ثلة من فرسانه بسفح جبل الريحان، وتقدم إلى فرديناند وسلم إليه مفاتيح المدينة، ثم ولى ظهره منطلقاً إلى الجبال، حتى إذا وصل إلى قرية البذول، وهي على مسافة مرحلتين من المدينة، وقف يودع المملكة التي نزع منها، فرأى المرج النضير وأبراج الحمراء ومنائرها الضاربة في السماء وبساتين جنة العريف، فأجهش بالبكاء وصاح الله أكبر، ووقفت أمه عائشة إلى جانبه وهي تقول:

حق لك يا بني أن تبكي كما تبكي النساء، لفقد مدينة لم تستطع أن تدافع عنها دفاع الرجال! ولا تزال البقعة التي ودع فيها أبو عبد الله مدينته بدموعه وزفراته تُسمَّي إلى الآن: آخر حسرات العربي. ثم اجتاز أبو عبد الله البحر إلى بر العدوة بإفريقية، حيث كان يعيش بها هو وأبناؤه بالاستجداء وسؤال المحسنين.

للتاريخ والإنصاف

ويجدر بي هنا أن أقف قليلاً لأعود إلى التاريخ في قصة الأندلس وأردد ما قاله بحقها المرحوم علي الجارم، من أنها قصة رائعة تتقلب فيها أحداث الزمان، ويداول الدهر فيها بين شطريه، فهو مرة صفاء لا يشوبه كدر، وهو في أخرى هم ونصب، فيها من أحاديث البطولة والأقدام ما هو عجب. فيها جرأة طارق، وإقدام عبد الرحمن الداخل، وعزيمة الناصر، وعبقرية المنصور، وسخاء أبي الحجاج، وحكمة ابن عباد.

وفيها صحائف من ذهب تتجلى فيها مدنية العرب كمعجزة من المعجزات، تتراءى من خلال سطورها شعلة النور ومنائر الهداية المنبثقة من جامعات قرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها. كملتقى طلاب العلم من الشرق والغرب. فيها الأدب السامي والشعر والفن العالي، والهندسة الفائقة والنقش الزاهي، فأرى من كل هذا أن سقوط الأندلس كان سقوط النجم المتلالي، وأن دولة لم تشيع بالعبرات والحسرات كما شيعت الأندلس، ولم يبك الشعراء ملكاً طواه الزمان كما بكوا ملك الأندلس.

ولقد خفقت الجوانح بحب الأندلسيين، على الرغم مما يزعمه التاريخ، من أنهم أعطوا ملكاً فلم يحسنوا سياسته. ذلك أنهم كما قال الأستاذ علي الجارم رحمه الله في كتابه (العرب في إسبانيا) أمة نزلت أرضاً غير أرضها في إقليم فيه كل صنوف الفتنة والجمال، وكان أعداؤهم يحيطون بهم من كل جانب، وأعداؤهم في المشرق ينصبون لهم الحبائل، عاشوا نحو ثمانمائة عام في ديار

غير ديارهم، فعمروا الأرض أكثر مما ترك الأمويون في الشام، والعباسيون في بغداد، والفاطميون في القاهرة. وما الهدامون لآثارهم إلا أعداؤهم من والفرنجة.

وها أن مستشرقاً إسبانياً من أعظم الكتاب في العصر الحديث (بلاسكو ايبانز) يقول في كتابه المشهور (في ظلال الكنيسة) وهو من أكبر أصدقاء العرب المعجبين بحضارتهم، ما ملخصه: لقد جاءت نهضة إسبانيا على أيدي العرب. فلقد كان الفتح العربي حملة بعثة حضارية استوعبت علم اليونان ومدنية فارس وحكمه الهند القديمة وصنائع الصين العريقة، إنه الشرق يدخل في صميم أوروبا كلها عن طريق إسبانيا التي استقبلت مفتوحة الذارعين رسله الفاتحين الذين استولوا في شبه الجزيرة الإسبانية في مدى عامين اثنين على حكم استغرق استرجاعه سبعة قرون! فلقد كان حرية الاعتقاد وهي حجر الزاوية في بناء عظمة الأمم مبدأ معززاً عند العرب.

وهكذا قامت في القرن الخامس عشر أجمل وأغنى حضارة عرفتها القارة الأوروبية. وقد تألف من أجناس مختلفة وأديان متباينة مجتمع متضاعف النشاط يتعايش فيه المسلمون واليهود والإسبان والعرب الخلص وأبناء مصر والشام والمغرب في خليط متمازج يذكرنا اليوم بالولايات المتحدة الأميركية.

وفي هذا الوطن الإسباني العربي قامت عوالم متعددة من الأفكار والعادات والمدنيات. ومع هؤلاء العرب الواردين تواردت أنواع من الزراعة والصناعة كالقطن والبن وقصب السكر والليمون والبرتقال والرمان وحرير القز والورق والمنسوجات من

الوشـي والـشفوف الرقيقـة والأسـلحة الدمـشقية المنزلـة بالفـضة والـذهب وكـذلك الحـساب العـشري والجبر والـكيميـاء والـصيدلة والطـب والعلـوم الـكونيـة والـشعر المقفـى. ولقـد كـان الفلاسـفة الأقدمون من اليونان على وشك الاندثار. لولا العرب الـذين نـشروهم واصـطحبوهم في فتـوحهم فأصـبح للمعلـم أرسـطو مكـان الـصدارة والرئاسة في جامعة قرطبة وكان الراهب من أهـل الشمال إذا أوتـي الرغبـة في زيـادة العلـم أتـى جامعـة مـن الجامعـات العربيـة في المـدن العربية ليتزود في الفلسفة والعلوم الكونية.

ويقـول كتـاب آخـرون إسـبانيون مؤرخـون: إن المسلمين لما نزلـوا غرناطـة وهـاموا في جبالهـا ووديانهـا ورياضـها اعتبروهـا كالجنـة الموصوفة في القرآن وتأثروا بنعيمها، وانتزعت منهم الطبيعـة الفاتنـة روح الحرب والغزو لتحل محلها روح شعرية حساسة تميـل إلى العلـم والنشر والتمدن والإنشاء والأعمار.

وداع غرناطة، وإلى الجزيرة وجبل طارق:

بمثـل هـذه الأحاسـيس المتناقـضة: صـور التـاريخ وصـور الآثـار والحقائق الماثلة فيما قاله ابن خفاجة الأندلسي:

كتبتْ يدُ الحـدثان في عَرصَاتها   لا أنـت أنـت ولا الـديارُ ديـار

ودعنا غرناطـة وداعـاً لم يـزد جراحـات القلـوب إلا تبريحـاً وإيلامـاً، وكـأننـا مـن أبنـاء تلـك الـديار نهجرهـا مـرغمين، في موكـب مـن مواكب أبي عبد الله الحزينة الباكية وكأنه بيننا أو أمامنا. ولقد نكـون في مـسيرنا إلى البحـر سـلكنا ذات الطريـق الـتي سـلكها في هجره الدار إلى غير مآب، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

قصدنا الجزيرة وتبعد عن غرناطة 267كم، وبعد أن تركنا سهول غرناطة الخضراء صعدنا في الجبال في ارتفاع شاهق وسط مناظر طبيعية أخاذة كانت تخفف من أحزاننا، والوديان من حولها مليئة بأشجار الزيتون والزراعات الشتوية وزراعة الدخان. أما الجبال فمكسوة بأشجار الصنوبر بينما كانت تتراءى أمامنا من بعد جبال أكثر علواً تغمرها الثلوج حتى إذا أطل علينا البحر الأبيض المتوسط باشرنا بالهبوط وتبدل الحال من برد غرناطة القارس إلى دفء ملقا التي بلغناها بعد مسير ساعتين ونصف. ومنها، وبعد الغداء في فندق للسياحة فخم كائن على البحر، يممنا شطر جبل طارق والجزيرة الخضراء، في طريق ساحلي جميل جداً مليء بالمصايف والفنادق والبلاجات، تحيط بها الورود والأزهار. وهذا الساحل يشبه ساحل «الكوت دازور» في فرنسا، ووقفنا عند المفرق إلى جبل طارق أو الصخرة الكبرى الراسية في البحر، التي نزل بها طارق بن زياد فكسبت اسمه على مر الزمان، وفي جنبات تلك القلعة الكبرى تقوم أماكن السلطة الحاكمة البريطانية والميناء ومراسي البواخر الذاهبة إلى الشرق والآيبة منه.

وكان منظر أشعة الشمس عند الغروب تنعكس على مياه البحر الدافئة من أبهى المناظر، وأمامنا عن بعد جبال المغرب العربي في شقه البحر الثاني من الجانب الإفريقي، تشدنا بشوق روحي إليها.

وبعد 7 كيلو مترات من المفرق إلى جبل طارق وصلنا إلى الجزيرة، وهي مدينة صغيرة جميلة، ميناؤها سبيل المسافرين إلى سبته وطنجه من كل حدب وصوب. وكان سقوطها بيد الإسبان

سنة 742هـ. أو 1342م. أما جبل طارق فإنه لم يسقط بيد الإسبان السقوط الأخير إلا عام 1462م. وكان فقده ضربة شديدة للأندلس ومن ممهدات سقوطها الأخير.

وتبعد الجزيرة عن مدريد 648كم. وعن قرطبة 378 وعن قادس 121. وإليها تنسب معاهدة الجزيرة المشهورة نتيجة لمؤتمر الجزيرة عام 1906 ، الذي تقاسم به الأوروبيون النفوذ في الشمال الإفريقي، فأطلقت يد الإسبان والفرنسيين في المغرب العربي وغيرهم في البلاد الأخرى، ولا تزال المدينة تحتفظ باسمها العربي Al-Geciras.

طنجة والمغرب

وغادرنا الجزيرة بباخرة بحرية الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء في 18/ 12/ 1957، منطلقة إلى المغرب لتنزل في طنجة. مررنا أولاً من أمام رأس طريف الشهير، ثم تركنا الشاطئ الإسباني إلى الأطلنطي. وبلغنا مدينة طنجة «الدولية سابقاً» بعد ساعتين ونصف من تركنا الجزيرة.

والوقت في المغرب العربي يتماشى مع وقت غرينويش، ومعظم الفنادق في طنجة تتسم بطابع مراكشي أو أندلسي، والمدينة تضم نحواً من 200 ألف نسمة، منهم 120 ألف مغربي، و30 ألفاً من الإسبان والبقية من اليهود والأجانب. وهي كثيرة الحركة وبها أحياء حديثة وجميلة. يقع معظمها على سفح جبل، كما أن بها قبر ابن بطوطة الرحالة المغربي المولود فيها. ويظللها اليوم علم المغرب، وسلطان الملك محمد الخامس ملك المغرب. وقد أشر على جوازات سفرنا بمهر الأمن العام المغربي عند الدخول.

أحوال المغرب الطبيعية والزراعية وأحوال سكانه

والمغرب تبلغ مساحته 520 ألف كيلو متر، منها 415 ألف كيلو متر بالمنطقة الجنوبية التي كانت مشمولة بالحماية الفرنسية، و104 آلاف في المنطقة الشمالية، التي كانت مشمولة بالحماية الإسبانية، و380 كيلو متراً في منطقة طنجة. ويبلغ طول سواحله على المتوسط من حدود الجزائر إلى طنجة 468كم. وعلى المحيط الأطلنطي من طنجة إلى حدود الصحراء 835 كم.

وتقع جبال الريف في الشمال قرب المتوسط وجبال الأطلس الشهيرة في الجنوب ويتراوح علو الجبال من 750 متراً إلى 4165 متراً. وتبلغ مساحة السهول نحو الثلثين. والمغرب هو القطر الوحيد، بين أقطار الشمال الإفريقي، الذي تكثر فيه الأمطار والثلوج والمياه والأنهار الكبرى.

والسكان ينتمون إلى العنصر البربري الذي استقر بالبلاد خلال العصور القديمة. وبعد الفتح الإسلامي نزح العرب إلى المغرب وامتزجوا بالسكان امتزاجاً كبيراً خلال القرون المتعاقبة، وهاجرت له خلال القرن الخامس الهجري قبائل عربية متعددة واختلطت بالسكان في جل أنحاء المغرب.

وبعد سقوط غرناطة في القرن التاسع، هاجر إلى المغرب عدد كبير من سكان الأندلس مسلمين ويهود واستقر فيه عدد كبير من الأجانب في القرن الحالي ويقدر عددهم بنحو 400 ألف من أصل المجموع البالغ عشرة ملايين نسمة و90٪ من الأجانب يستقرون بالدار البيضاء وكبريات المدن وأكثرهم من الفرنسيين ويليهم الطليان والإسبان والبرتغال، كما يبلغ عدد اليهود المغاربة نحو 200 ألف معظمهم بالمدن والباقي بجبال الأطلس، ولا تزال عدة قبائل بالمغرب تعيش على التنقل والارتحال في طلب العيش والماء.

والمغرب بلد زراعي، أربعة أخماس سكانه يشتغلون بالزراعة والرعي. والأراضي المحروثة تبلغ 4 ملايين ونصف هكتار أي ربع مساحة الأراضي الصالحة للفلاحة. وتبلغ الأراضي التي يستثمرها الأوروبيون 900 ألف هكتار، ويعنون بزراعة الكروم والأعناب

وأشجار الزيتون والفواكه والحمضيات والخضار المختلفة والتبغ والكتان والقطن والقنب والحلفا في أكثر الأراضي خصباً.

ومعظم إنتاج الأراضي الزراعية في المغرب هو من الزراعة الشتوية وتوازي 90٪ من الأراضي المحروثة، وتبلغ مساحات الغابات ثلاثة ملايين ونصف هكتار من أشجار البلوط والعرعار والصنوبر والأرز، ويبلغ عدد الأغنام 13 مليوناً من الرؤوس، والماعز 6 ملايين، والأبقار مليونين ونصف، والحمير مليون وربع، والبغال 200 ألف.

وفي المغرب نوعان من الصناعة، الصناعة اليدوية الفنية، والصناعات الحديثة. وتعتمد الأخيرة على الفحم الحجري والكهرباء والبترول وكلها متوفرة بالغرب.

وفي مقدمة الصناعات الحديثة معامل إنتاج المواد الغذائية والمشروبات الغازية وتركيب المواد الكيماوية والنسيج الصوفي والقطني والدباغة وصناعة الأدوات المنزلية. وبلاد المغرب غنية بمختلف المعادن، وفي مقدمتها الفوسفات والفحم الحجري والبترول والمنغنيز والحديد والرصاص والزنك والنحاس.

وتكثر الأسماك المختلفة في الشواطئ، وتعد مدينة أسفى من أعظم موانئ الصيد في العالم. وقد بُنيت في المغرب عدة سدود لخزن المياه قصد توليد الكهرباء أو سقي الأرض، وأكبرها سد ايمفوت على نهر أم الربيع وسد بين الويدان على وادي العبيد وسد القنصرة على وادي بهت وسد نهر نفيس. أما المواصلات فإن المغرب مزود بشبكة طرق كبرى تربط ما بين المدن والقرى، ويبلغ طول الطرق المعبدة 8 آلاف كم. وطول الطرق الثانوية 32 ألفاً، وفي

المغرب 1700 كم. من السكك الحديدية ويتصل المغرب بوساطتها بالجزائر.

ماضي المغرب

إن أول دولة أجنبية اتصلت بالمغرب هي دولة قرطاجنة ثم الرومان، وهم الذين أسسوا مدينة طنجه ثم جاء الواندال. ثم سيطرت بيزانطة على المغرب حتى سنة 640م. عندما استخلصه عقبة بن نافع رضي الله عنه عام 62 للهجرة. وبقي المغرب تابعاً للحكم العربي الإسلامي بالمشرق، من الفتح إلى حدود 172هـ.

ثم تأسست الدولة الإدريسية في عهد إدريس الأول وهي أول دولة عربية إسلامية مستقلة بالمغرب، ثم الدولة المرابطية من سنة 453هـ. أو 1061م. إلى 541هـ و 1146م. وفي هذا العهد أسست مدينة مراكش، ثم الدولة الموحدية من 524هـ. أو 1130م. إلى 667هـ. أو 1269م. ثم الدولة المرينية من 613هـ. أو 1216م. إلى 876هـ. أو 1471م. ثم الدولة الوطاسية إلى 961هـ. أو 1554م. ثم الدولة السعدية إلى عام 1069هـ. و1659م. ثم الدولة العلوية وقد تأسست سنة 1050هـ أو 1640م. ولا تزال أسرة هذه الدولة هي الحاكمة حتى اليوم.

وفي عام 1912 فرضت الحماية الفرنسية على المغرب بموجب معاهدة فاس في 30 آذار من تلك السنة، وجردت الحكومة المغربية من اختصاصاتها في عهد مولاي عبد الحفيظ كما فرضت معاهدة 27 تشرين الثاني 1912 الحماية الإسبانية على القسم الشمالي من المغرب.

وقامت بعد ذلك ثورات قبائل الأطلس ومافيلالت وسوس وجبال الريف، ولم تخمد حركة المقاومة إلا في سنة 1934. وكلنا يذكر ثورة الأمير محمد عبد الكريم في الريف وما انتهت إليه.

وبعد وفاة مولاي يوسف وتولي السلطنة ولده محمد الخامس عام 1927 ، ظهرت حركة ثورية نفسية جديدة، زادها إذكاءً صدور الظهير البربري سنة 1930 ، الذي زاد في تمزيق وحدة البلاد ، وإقامة السدود بين سكانها ، فانبثقت حركة المطالب الوطنية التي انتهت بتأسيس الأحزاب الوطنية ووقوف الشعب صفاً واحداً للمطالبة بحقوقه المغتصبة وراء مليكه الذي قاسى الشدائد والأهوال في سبيل وطنه، حتى كللت جهوده بالنجاح التام.

وقام الشعب المغربي ببذل كل غال ورخيص في سبيل تحقيق أمانيه حتى أذن الله عام 1956 بأن جعل خاتمة هذه المراحل الطويلة ، المليئة بالأحداث عودة محمد الخامس من منفاه، وأخذه من فرنسا اعترافاً رسمياً باستقلال المغرب استقلالاً تاماً ووحدة أرضه وتحقيق أمانيه، بموجب تصريح مشترك وبروتوكول في 2 آذار 1956 ، ثم تبع ذلك بيان مشترك مغربي إسباني في 7 نيسان 1956 ، اعترفت فيه إسبانيا أيضاً باستقلال المغرب.

إلى تطوان

في يوم 19/ 12/ 1957 توجهنا من طنجة بالسيارة لزيارة تطوان عاصمة المنطقة الخليفية المشمولة بالحماية الإسبانية سابقاً، والبعد بينهما 60 كيلو متراً ، وأجرينا معاملات الحدود على حدود طنجة، وفي حدود المنطقة الخليفية ذهاباً وإياباً. والطريق جميلة

متعرجة تتخللها جبال ووهاد ومضائق، كان بعضها مسرحاً للثورة الريفية التي أوقدها الزعيم المغربي الأمير محمد عبد الكريم عام 1920 والتي انتهت عام 1925 باستسلامه ونفيه من قبل فرنسا إلى جزيرة مداغشقر.

ودخلنا مدينة تطوان التي تتركز فيها الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية والفكرية للمنطلقة كلها، وقد أسست هذه المدينة في عهد يوسف المريني سنة 685 للهجرة، بينها وبين البحر عشرة كيلومترات، وبينها وبين سبته نحو أربعين، وتقع في سفح جبل درسة شمال النهر الكبير. وخربت في حدود سنة ثمانمائة، عندما غزاها الإسبان وبقيت خراباً نحو تسعين سنة، ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبي الحسن علي المنظري الغرناطي.

ومدينة تطوان الموجودة الآن هي من بناء المسلمين المهاجرين من الأندلس ومن غرناطه بالذات. ولا تزال بعض العائلات العريقة في تطوان تحافظ على أنسابها الأندلسية، وقسم منهم يحتفظون حتى اليوم بمفاتيح منازلهم في الأندلس يتوارثونها أباً عن جد. ومختصر تاريخ تطوان لمؤلفه الأستاذ محمد داود عضو المجلس الوطني الاستشاري في المغرب، ومن كبار الأدباء والعلماء الأخيار الذي تعرفت إليه أثناء هذه الزيارة، يصف لنا الكثير من أثر تلك العائلات الأندلسية الأصل في تطوان، وهو من عيونها، وكذا عائلة الطريس التي منها السيد عبد الخالق سفير المغرب في مصر والشام وهو أحد المجاهدين الذين عملوا مع حزب الاستقلال في سبيل حرية بلادهم.

وقد مكننا السيد أحمد مدينة الكاتب العام لعامل تطوان، وهو شاب مهذب متعلم ومن أرقى الشباب الذي يحمل الفكرة العربية وقد تلقى علومه الابتدائية في مدرسة نابلس بفلسطين، مكننا من الاطلاع على أهم ما في البلد من آثار ومعالم ومجتمعات. فزرنا أولاً قصر الخليفة الرسمي الذي كان مقراً لمولاي الحسن خليفة تطوان سابقاً وسفير المغرب حالياً في لندن، وهو قصر فخم بما احتواه من هندسة أندلسية وزخارف ونقوش وقيشاني وفسيفساء ونجارة مغربية بديعة وسقوف مزينة وفيه الكثير من الآيات والأشعار بالكتابة المغربية. وزرنا السوق القديمة المتعرجة الضيقة المطبوعة بالطابع الشرقي والأسواق الحديثة وسور المدينة.

وفي بيت السيد الطريس تناولنا الغداء على الطريقة المغربية بالأيدي وسط قاعات أندلسية وأرائك مغربية ومع نفر من أهل العلم والوجاهة أمثال السيد محمد داوود المار ذكره وهو مملوء حماسة وحباً للعروبة والأستاذ محمد بن العربي بنونه من أفاضل المغرب وأكابر علمائه ومفكريه الذين درسوا في مصر والسيد أحمد مدينة ابن أخت الأستاذ الطريسي المملوء نبلاً وخلقاً وعلماً.

إلى الرباط

ويوم الجمعة في 20/12/ 1957 أخذنا طريقنا من طنجه إلى الرباط في ظلال طقس جميل يشبه نيسان في الشام. مررنا أولاً بأصيله ثم في مدينة العرائش ثم في القصر الكبير ثم عرباوه والمسافة 135 كم. اجتزنا ضمنها أولاً حدود طنجة ثم حدود

المنطقة الخليفية الإسبانية سابقاً حتى وصلنا إلى حدود المنطقة الجنوبية التي كانت مشمولة بالحماية الفرنسية وكانت المعاملة في كل تلك الحدود ممتازة.

والطريق من طنجة إلى عرباوه، وهي منطقة الحدود، جبلية ومتعرجة تحيط بها الخضرة الدائمة والأشجار، ولكنها من عرباوه إلى الرباط وهي 140 كم. عريضة وسهلة وسط سهول منبتة وغابات كثيرة ومزارع من الحمضيات. مررنا بالمفرق الذي يؤدي إلى ميناء ليوتي نسبة إلى المارشال ليوتي ثم بمدينة القنيطرة وهي مدينة كبيرة وصناعية قائمة على نهر كبير تمخره بواخر للشحن حتى البحر، ووصلنا بعدها الرباط بعد مسير خمس ساعات ونصف وهي عاصمة المغرب ومقر مليكه وقاعدة حكومته. شيّدها الخليفة عبد المؤمن بن علي في القرن السادس للهجرة وجعلها رباطاً لحشد الجيوش والأساطيل لغزو الأندلس، وأتم بناءها الخليفة يعقوب المنصور.

والمدينة تحيط بمعظمها الأسوار الموحدية والأندلسية والقديم من المدينة يحتفظ بطابعه المغربي القديم. أما الحديث منها، فهو أوروبي الطراز يحوي ساحات واسعة وشوارع مستقيمة عريضة وبها الكثير من الحدائق. وأهم ما في الرباط بقايا وأطلال جامع حسان الشهير الذي شيده الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ليكون من أكبر مساجد العالم، تبلغ مساحته 26 ألف متر مربع وطوله 186 وعرضه 142م، وبه 12 باباً. أما منارة حسان وهي من أعاجيب الفن المعماري، فهي دوماً قبلة السواح ومن العلوم أنها بقيت ناقصة ولم تكتمل، ويبلغ عرض كل جهة من جهاتها 19م وارتفاعها 44 متراً.

خطط الاستعمار وإرثه الضخم الصعب وقضية أفني

لقد كان إلى أمد غير بعيد ممنوع على المسلم أن يسكن خارج المدينة القديمة، أما المدينة الحديثة فهي وقف على غيره وعلى الأوروبيين.

وبهذه المناسبة اذكر أن إنتاج المغرب يختص الأوروبيون بأربعين في المائة منه على قلة عددهم. وكانت خطة المستعمر أن يقطع الأرض الخصبة والقريبة من وسائل الري والبحر إلى الأجانب وبوسائل مختلفة وأثمان بخسة وأسباب قاهرة. وهؤلاء عمروا الأرض وعملت فرنسا كثيراً في تنظيم شؤون العمران وشقت الطرق التي لا مثيل لها ولكن لمنفعة جماعتها أولاً.

وقد كان هدفها حصر المغاربة العرب المسلمين في أماكن منعزلة بعيدين عن المناطق الخصبة المنتجة، والتفرقة العنصرية بينهم وبين البربر ومحاربة التعليم وبالتالي الانصهار ببوتقة فرنسية أو الإبادة على مر الزمان حتى لا تبقى جنسية أو فكرة مغربية مسلمة وقتل اللغة العربية، ولولا تلك الشرذمة القليلة من أحرار المغرب ورجالات حزب الاستقلال وغيرهم، ولولا هذا المليك الذي هو القمة في القومية المغربية الإسلامية، ولولا دور علوم الدين واللغة القديمة لأمكن لفرنسا أن تحقق مع مرور الزمن بغيتها.

ومن يطوف المغرب ويرى قلة شبابه المتعلم التعليم العالي أو الثانوي من قبل، وتلك اللغة العامية التي تخالطها اللغة الفرنسية، وذاك الاستيلاء الفرنسي الكامل على دواوين الدولة كلها بلغتها وعاداتها وعلى المجتمع، يدرك جيداً أي نصر حققه المغرب ليغير عجلته من جهة إلى جهة ومن درب إلى درب، وأي مشاق يتعرض

لها، وأي صعاب تلاقيه في تعريب الدوائر وإيجاد الشباب المغربي المتعلم لإملاء وظائفها وأي مشاكل يلاقيها، من جراء قضايا الاستيطان وحقوق النزلاء، وتحرير الاقتصاد المغربي وإنشاء وحدة مالية مغربية مستقلة.

ولكني واثق أن المغرب سيتخلص من كل هذا عاجلاً أو آجلاً، بفضل حكمة مليكه ورباطة جأشه، وإخلاص رجال حكومته وجهاد رجال الأحزاب، وعلى رأسهم الأستاذ علال الفاسي، الذي يذكي في نفوس أبناء المغرب روح المقاومة للاستعمار، والمغرب يحارب على عدة جبهات مع فرنسا ومع إسبانيا في الشمال، ومعها في الجنوب في مستعمرة سيدي أفني، التي اغتصبتها إسبانيا عام 1860 وأتمت احتلالها عملياً سنة 1934، وهي واقعة على الأطلنطي، طول شاطئها 100 كم، ومساحتها 2500كم مربع ويقطن بها نحو 30 ألفاً من سكان آيت عمران، ومع السكان الأجانب المستوطنين وما اكتسبوه من حقوق مع الزمن.

ثم لدى المغرب مشاكل القواعد الجوية الأمريكية، فقد سمحت فرنسا للولايات المتحدة الأمريكية بموجب اتفاق ثنائي عقد في 22 أيلول 1950، وآخر في أيار 1951، بإنشاء خمس قواعد جوية أمريكية في المغرب في بن سليمان والنواصر وجمعه سحيم وسيدي سليمان وبن جرير. وبلغت تكاليف بناء هذه القواعد في مرحلتها الأولى نحو 200 مليار من الفرنكات، استملكت الأرض فرنسا من أهليها بأثمان بخسة وأجرتها هي لأمريكا.

وهكذا تبدو الصعاب كثيرة في طريق المغرب نحو التحرر واستكمال أسباب السيادة، ولكن فجر النور الذي طلع على كل

الأمم المستعبدة في العالم، وإيمان أهل المغرب القوي وروحانيتهم الإسلامية والعربية الكبيرة، وإخلاص زعماء البربر لقضايا وطنهم ولمليكهم، كفيل بتذليل تلك الصعاب. كيف لا وهذه الإذاعة المغربية تنفخ كل يوم في أرواح ونفوس الشعب اليقظة والتمرد على الاستعمار والأخذ بأسباب النهضة وتنقل إليهم أخبار البلاد العربية، وهذه صوت العرب أيضاً يسمعها السائق والعامل والتلميذ، فيتابع مراحل جهاد العرب في مختلف أمصارهم، وخاصة مصر والشام، ويعلم الشيء الكثير من أخبار المشرق، الذي كان ما بينه وبين المغرب سداً منيعاً، أقامه المستعمرون للحيلولة دون أي اتصال، وهذا كبير البربر رئيس الوزراء السابق السيد محمد البكاي، الذي يعرف حلب ودير الزور معرفة طيبة، يوم كان ضابطاً في الجيش الفرنسي في أعوام 1931 ـ 1932، قد دلل على عميق وطنيته يوم استقال من باشوية إحدى المدن الكبرى، عند نفي مليكه، محتجاً على فرنسا، فلما أن عاد المليك اختاره رئيساً لأول وزارة استقلالية، وهو الرجل المملوء نبلاً وخلقاً وحكمة وحباً للعروبة.

والبربر جماعة امتزج تاريخها بتاريخ الإسلام، وكان لهم كثير من الفضل عليه ولغتهم تسمى الشلحة وهي مزيج من البربرية القديمة وقليل من العربية.

والمشاكل التي يتعرض لها المغرب كثيرة، فقد خلف نظام الحماية تراثاً ثقيلاً لسوء الحظ في البلاد. فهناك الجاليات الضخمة الفرنسية، التي منحتها الحماية حرية مطلقة وبيدها الجزء الكبير من الاقتصاد المغربي والتي لم يتم تحريرها أو إلغاؤها بعد. وهناك

قضية وجود الجيوش الأجنبية، التي ما تزال تتمسك بوضعيتها أيام الحماية، وكذلك القواعد العسكرية الأميركية، التي قامت دون استشارة المغرب أو مشاركته، والتي منحت امتيازات مالية وقضائية وجمركية تتنافى مع وضع البلاد الجديد المستقل.

ومن العراقيل الضغط الفرنسي في الميدان الاقتصادي، وكلنا يعلم أن الاقتصاد المغربي كان في وضع جعله متمماً للاقتصاد الفرنسي، ولهذا فإن فرنسا، كلما أرادت، تضغط على الجهاز الاقتصادي المغربي بوسائل كثيرة. وكذلك مشكلة الحدود المغربية ومشكلة الجزائر التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً قوياً مع القضايا القومية في المغرب والتي تكون السبب المباشر لتمسك الجيش الفرنسي بقواعده في المغرب.

مع المليك ورجال الحكم والشعراء العرب

اتصلنا في الرباط بسفراء العرب كلهم، وفي المقدمة سفيرنا فيها معالي الأستاذ أسعد محاسن وزير المال السابق، الذي كان خير دليل لنا في العاصمة وخير معين، وقد لقينا من لطفه وكرمه وأنسه ما هو أصيل فيه، كما لقينا من فضل السفير العراقي، معالي الأستاذ عبد الغني الدلي مالا ننساه، وقد أكرمنا بحفلة جامعة فائقة، وكذلك السفير السعودي شاعر العروبة الأستاذ الأديب خير الدين الزركلي، وهو من نعلم جميعاً العربي المجاهد المؤمن المبدع.

واجتمعنا إلى وزير الاقتصاد والمال السيد عبد الرحيم بو عبيد وهو من مجاهدي المغرب والذين وقعوا وثيقة 11 كانون الثاني

1944 بالمطالبة بالاستقلال ووحدة أرض المغرب بظل محمد الخامس، وإلى كثيرين من زملائه من رجالات الدولة والأحزاب والعلماء والأدباء.

وكانت خاتمة المقابلات حظوتنا بلقاء صاحب الجلالة محمد الخامس ملك المغرب في قصره في الرباط وقد استقبلنا أحسن استقبال، وذكر ما بين سوريا والمغرب والعروبة من صلات قديمة وحاضرة وكيف يريد توثيقها. وأنه مسرور جداً لما لقيته كريمته الأميرة عائشة من استقبال حسن في دمشق من قبل صاحب الفخامة رئيس البلاد السيد شكري القوتلي وحكومته وشعبه والجمعيات النسائية. وارتجلت بين يديه كلمة أوضحت فيها مركز المليك السامي في قلوب أبناء الشام والعرب والمسلمين وحب المشارقة للمغرب وسعينا لتعزيز الصلات الاقتصادية والاجتماعية بين سوريا والمغرب، وعن أملنا القوي في رخاء البلد الشقيق والوصول به على يد جلالته إلى كامل أغراضه وأمانيه.

وقد سر كل السرور من كلمتي وأثنى على العاطفة التي أوحتها، ورجا لنا الخير وتقوية أواصر القربى والعلاقات بين بلاده وبلادنا، وتمنى كثرة التزاور بين الأقطار الإسلامية لنعيد إلى الماضي سالفه يوم كانت تشد الرحال من المغرب إلى الشام وبغداد، ومن القاهرة والبصرة وحلب إلى تونس وفاس ومكناس وطنجه وتطوان.

وودعناه وكلنا إعجاب بهذا المليك الطاهر المجد، الذي ضحى بعرشه في سبيل شعبه، ولم يضح بشعبه في سبيل عرشه، وهو يحمل آمال وآلام عشرة ملايين مغربي. وكانت المقابلة مع السفير

السوري معالي الأستاذ أسعد محاسن الذي قدمنا للمليك نحن: عبد الحميد شومان ومنصور قدارة وكاتب هذه السطور.

وكان يتقدمنا في المقابلة وزير القصر ورئيس التشريفات السيد الفاسي الذي هو اليوم سفير في طهران وأنقرة. وقصة هذا المليك وحدها تاريخ كامل، فهو من أسرة حاكمة هي «الأسرة العلوية»

الأسرة العلوية وتولية محمد الخامس

وليت الحكم بعد أسر مالكة عديدة تمتعت كلها باعتبار رفيع في العالم الخارجي كانت محاربة قوية وإدارية ممتازة وسياسية قادرة، وعلى الرغم من أن بعض سلاطينها كانوا قساة لا يرحمون، إلا أنهم كانوا يرعون العلوم والفنون، ويشجعون الرجال النابغين، والتاريخ شاهد ناطق على مآثرهم العظيمة في إسبانيا، سواء في ميدان الهندسة والبناء، أو في ميادين الطب والنسيج والخزف وحفظ التربة. ولا تزال ذكراهم حية إلى اليوم، في المدارس العديدة التي أنشؤوها في فاس، والأضرحة السعدية في مراكش والجوامع التي أقاموها في كل البلاد.

وأن من أشهر سلاطين الأسرة العلوية الحاضرة مولاي إسماعيل (1672/ 1727) وكان ذا شخصية قوية حكمت البلاد طوال خمسين سنة عرفت خلالها عهد ازدهار من القوة والوحدة لا تزال آثاره شاهدة للعيان ولكنه كان قاسي القلب متعطشاً للدماء.

وفي أوائل هذا القرن وفي عام 1907 خلع مولاي عبد العزيز عم الملك الحالي وحل محله أخوه مولاي عبد الحفيظ الذي بذل جهوداً كبيرة لإعادة النظام إلى البلاد ولتعزيز الخزانة الفارغة فوفق بادئ

الأمـر ولكنـه مـا لبـث أن انغمـس في مـلاذه ومتارفـه فأفلتـت دفـة الحكـم مـن يديـه. ولكـن عنـدما أوشـك المتمـردون مـن البربـر أن ينقضوا على العاصمة فاس لجأ عبد الحفيظ إلى طلب المساعدة من فرنـسا فوجهـت ثمانيـة آلاف جنـدي لنجدتـه ممهـدة بـذلك سـبيل الاحتلال الفرنسي لمراكش.

وقـد تنـازل مـولاي عبـد الحفـيظ في آب 1912 عـن العـرش وتـولى أخوه مولاي يوسف والد محمد الخامس، فاغتنم المستعمرون فرصة انـصراف الرجـل إلى تقـاه فجعلـوا سـلطانه اسميـاً لـيس في يـده مـن الأمـر شـيء وإنمـا الأمـر للماريـشال ليـوتي وحـده. والعـادة في توليـة السلطان أن علماء المسلمين هم الذين يختـارون الـسلطان الجديـد في اجتمـاع خـاص يعقدونـه بجامعـة القـرويين في فـاس، ولكـن في ظـل الحمايـة الفرنـسية لم يكـن هـذا الاختـصاص لرجـال الـدين كمـا كان قبل الحماية.

وعنـدما تـوفي مـولاي يوسـف عـام 1927 اختـار علمـاء المسلمين أصـغر أولاده سـنـاً الملـك الحـالي الـذي جـرت ثقافتـه في المجـرى التقليـدي أولاً مـن دراسـة أصـول الفقـه وآداب اللغـة العربيـة ثـم درس الفرنـسية وعـدداً من العلوم العصرية. وما علم الفرنسيون - عنـدما اتجهوا نحو الشاب محمد دون أشقائه الـذين يكبرونـه سنـاً ليرفعـوا به إلى العرش الشريفي وكان عمره سبع عشرة سنة هذا الذي يبدو ضعيفاً جزوعاً لين العريكة بسيطاً - أنهم ملاقون فيه فيما بعد، رجـلاً ذا شخـصية قويـة يـصبح في منتـصف القـرن العـشرين معبـود شعبه وزعيماً تتجسد فيه آمال أمة بكاملها.

ومما يحكى عن رباطة جأش هذا المليك، وكما روى الكاتب الإنكليزي الشهير روم لاندو صاحب كتاب أنا عائد من مراكش الذي ترجمته دار العلم للملايين في بيروت، والذي اعتمدته في كثير من الحوادث في حديثي هذا، أنه في 26/ 1/ 1951 عندما اجتمع الجنرال جوان (المقيم الفرنسي العام في مراكش - آخر ملك غير متوج في العالم - كما وصف هو نفسه) بالسلطان محمد الخامس وقدم إليه إنذاره المشهور قال الأول للثاني: «إذا كان السلطان يشعر أنه غير قادر على الموافقة ففي استطاعته أن يتنازل عن العرش لأحد أفراد الأسرة المالكة» فأجابه السلطان في تؤدة وهدوء: «لسنا ههنا أيها الجنرال في ساحة عرض عسكري حيث يكفي أن تصدر أوامرك لكي تطاع»!

نفي السلطان وعودته:

وتوالت الحوادث وزج أحرار المغرب في السجون دون محاكمة، واحتلت الفرق العسكرية أمهات المدن، وكشف الجلاوي - باشا مراكش - عن وجهه الحقيقي، وكان في عام 1947 قد زار المقيم العام الجنرال جوان قائلاً له: «سيدي الجنرال، إن رجالي على أتم الاستعداد للعمل، أنهم ينتظرون إشارة منك وأمراً مني للانقضاض على السهول ومطاردة ذاك المخادع، الذي نسي أن فرنسا هي التي رفعته إلى العرش».

وظلت فكرة إقالة محمد الخامس مختمرة في أذهان رجال الاستعمار حتى كان لهم ما أرادوا، فطاروا به وبعائلته في صباح 20 آب 1953 وفي زحمة عيد الأضحى إلى كورسيكا ثم إلى ماداغسكر، واجلسوا مكانه السلطان الزائف محمد بن عرفة

الذي يقيم الآن في فرنسا. ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه. وكما قال الشابي الشاعر العربي التونسي: «لابد للقيد أن ينكسر». فقد انتصر الحق وانكسر القيد، وعاد محمد الخامس إلى عرشه في 16 تشرين الثاني 1955، بين تهليل شعبه وإعجاب العالم وعطف العرب، يزاول مهمته ويكمل رسالته.

إصلاحات المليك وحكومته

وهذا المليك المصلح يوالي جهاده في سبيل إصلاح المجتمع المغربي ويرفع من شأنه، وقد أدرك أنه ما لم تنتشر الثقافة في مختلف طبقات الشعب، فلن يكون له حظ كامل في الحياة.

وكان الفرنسيون ينظرون إلى مراكش وكأنها ملحقة بفرنسا أو متممة لاقتصادها، أهملوا الناحية الثقافية، وانصرفوا إلى تعزيز الحياة الاقتصادية التي تعود عليهم بأعظم الفائدة، فوجد الملك إزاء هذا الإهمال، أن من واجبه إنشاء المدارس الحديثة حتى وعلى حسابه الخاص، وأن يشجع غيره على أن يحذو حذوه، ذلك أن في المغرب أفراداً كثيرين من الباشوات والأعيان، الذين يملكون أموالاً طائلة وأراضي واسعة، والذين تعودوا أن ينفقوا بسخاء على ملاذهم ومتارفهم وعلى حفلاتهم.

وقد نظر محمد الخامس إلى النظام الإقطاعي كله نظرة خوف وريبة، ومن أجل ذلك وقف إلى جانب الطبقة المثقفة، وأرباب الحرف، وأفراد الطبقة الوسطى على العموم. ولقد أعلن في إحدى خطبه قائلاً: «لو أن هؤلاء الناس أنفقوا على شؤون التربية والتعليم - وهو يشير إلى النبلاء الإقطاعيين - نصف ما ينفقونه على أعيادهم وأفراحهم، إذاً لتحولت مراكش إلى جنة زاهرة بثمرات العلم، وإذن لكان في استطاعة شبابنا أن يكتسب ثقافة تؤهله لأن يقوم بقسطه في خدمة مواطنيه».

ولقد صدف يوم أن كنا في الرباط، وفي يوم السبت في 21/ 12/ 57 أن احتفل المغرب بتأسيس أول جامعة مغربية حديثة، دعي إليها ممثلو العرب الدبلوماسيون، والسفراء الأجانب، ورهط كبير من أساتذة الحقوق في باريس، ورجالات فرنسا المستشرقين، وعلى رأسهم الأستاذ ماسينيون. دشنها الملك بخطاب قومي رائع، وكان نواة هذه الجامعة معهد الحقوق والعلوم الذي أسس في الرباط عام 1920.

أما الجامعات الأخرى في المغرب فأهمها جامعة القرويين، التي أسستها فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام 245 للهجرة، وقد لعبت هذه الجامعة دورها في نشر العلم والفقه واللغة مدى طويلاً من الزمن.

ومما يقال أن سلفستر الذي صار فيما بعد بابا لرومية، درس بالقرويين وأدخل الأرقام العربية إلى أوروبا، كما أن ابن خلدون درس فيها وله في مكتبتها كتاب مخطوط بخط يده. وتطورت الآن جامعة القرويين إلى مدرسة حديثة تدرس العلوم العصرية لجانب العلوم الدينية وآداب اللغة والشعر. ويبلغ عدد التلامذة المغاربة المسلمين عام 1956 حوالي 332988، وعدد الفرنسيين 69731، والمغاربة اليهود 36958.

وتجد حكومة المغرب بإشراف الملك في مغربة الإطار الإداري، وقد بلغت نسبة المغربة في بعض الوزارات سبعين٪، وتعدتها في إدارة الأمن الوطني إلى الثمانين، وقام الجيش المغربي حدثاً سعيداً بين أحداث المغرب، ورئيس أركانه هو ولي العهد الأمير الحسن، وتحرر القضاء من كل القيود والامتيازات الأجنبية، وذلك بإمضاء معاهدتين قضائيتين مع فرنسا وإسبانيا، وبتنازل بريطانيا والولايات المتحدة، عما لهما من امتيازات قديمة. على أنه لا يزال في المحاكم الوطنية بعض القضاة الأجانب.

واتسعت حركة التعليم، فزاد عدد التلامذة مائة وأربعين ألفاً، واستعان المغرب بمعلمين من الدول العربية. وقد أوفدت سورية بعثتين علميتين للمساهمة في ميدان العلم المغربي، ومن جملة أهداف المغرب من هذه البعثات تقوية أواصر الأخوة بينه وبين شقيقاته، كما عني العناية بالعمل والعمال، وقيام المؤسسات النقابية والتعاونية وصناديق التوفير وبالمؤسسات الصحية.

وقد أقامت وزارة الصحة مجدداً 1964 سريراً جديداً في مستشفيات المدن والبوادي، كما يسرت 2250 سريراً آخر لعشرة مستشفيات قديمة، وخمسة عشر مستوصفاً، وسعت لتنظيم مؤسسات البر والإحسان برعاية المجلس الأعلى للتعاون الوطني الذي ترأس لجنته المركزية الأميرة عائشة.

الفتاة المراكشية وحقها باختيار شريكها

وقد صدرت إرادة ملكية تقضي بأن على كل شاب مسلم يود الزواج من أية فتاة، أن يطلب موافقتها على ذلك، وعليه بعد ذلك الانتظار حتى يبلغ الثامنة عشرة، وتبلغ هي الخامسة عشرة من عمرها. وكان يحق لوالد الفتاة أو ولي أمرها في السابق أن يعطيها زوجة لمن يشاء، رضيت الفتاة أم لم ترض. وكان يسمح بالزواج في سن مبكرة جداً.

في الناحية الاقتصادية

وفي الناحية الاقتصادية، كانت أبواب البلاد مفتوحة في وجه البضائع الأجنبية بتعريفات جمركية منخفضة فتعذر تصنيع

البلاد. فسعت الحكومة للتخلص من كثير من الاتفاقيات والامتيازات ووضع تعرفة جمركية جديدة تراعي ضعاف المستهلكين، كما اهتمت بتوحيد عملة البلاد وسحب «البيزاته الإسبانية» ليتسنى للحكومة العناية بقضايا النقد، لتظهر بمظهر مالي واقتصادي جديد.

وتعمل الحكومة في سبيل الزراعة وإحداث تغيير كبير في مظهر البادية في مساحة بين المائة وخمسين والمائتي ألف هكتار. وقد ابتدأت في العام الفائت حملة التشجير، وذلك لغرس عشرة ملايين من الأشجار المتنوعة.

ومما يذكر أنه بمناسبة افتتاح عملية غرس الأشجار، بلغ عدد أشجار الزيتون الجديدة التي تم غرسها بناحية مراكش 12 ألف زيتونة، وقد ارتفع إنتاج الزيتون خلال السنة المنصرمة. ويقدر ما استخرج منه من زيت بـ 35 ألف طن.

وتبلغ الواردات في ميزان التجارة الخارجية لعام 1956 حوالي 160 ملياراً، و 737 مليون فرنك، منها من المواد الغذائية 39 ملياراً و 606 ملايين وأهم هذه المواد هو: السكر، الشاي، القهوة، الجبن، الحليب، الزبدة، الخمور، اللحوم الأجنبية، البطاطس، ومن أصل الواردات تبلغ المستوردات من فرنسا 79 ملياراً و 809 ملايين.

أما الصادرات فقد بلغت 119 ملياراً و 51 مليون فرنك منها مواد غذائية بـ 57 ملياراً و 160 مليوناً، ومنها مواد معدنية بـ 37 ملياراً و 654 مليوناً. والصادرات التي تصدر إلى فرنسا قد بلغت 62 ملياراً و 694 مليون فرنك.

إلى مكناس وفاس

وفي صباح الأحد في 22/ 1/ 58 أخذنا السيارة إلى مكناس ثم إلى فاس، في طريق جميلة عريضة معبدة أحسن تعبيد، تكتنفها الأشجار الباسقة وبساتين البرتقال وغابات الفلين والفرشاية وسهول منبتة وبين الرباط وفاس 200 كم. وتحيط بمدينة مكناس أسوار عالية وأبواب عالية عريضة كلها محلاة بالقيشاني وعليها عديد من الآيات والتواريخ، وهي من كبريات المدن المغربية ذات الماضي المجيد.

تقع قرب جبل زرهون وترتفع عن سطح البحر 522م. تحيط بها سهول خصبة وبساتين فيحاء وغابات الزيتون، ويرجع تاريخ تأسيسها إلى القرون الهجرية الأولى. والمولى إسماعيل اتخذها عاصمة لملكته، فبنى بها الأسوار والقصور والحدائق والدور والمساجد والحصون والأبراج. ومن آثاره باب منصور العلج في ساحة الهديم وبستان أكدال وفيها قبة الخياطين، وهو الجناح الذي كان معداً لاستقبال السفراء الأجانب.

وكان لدى مولاي إسماعيل إسطبل واحد اتسع لـ 12 ألف فرس، وقد زرنا مرقد هذا الملك العظيم. والقبر ذو مهابة يقصد للزيارة والتبرك، تعلوه قبة جليلة تاريخية. كما زرنا دار الآثار العربية والفنون الجميلة، وهي دار أثرية قديمة عظيمة فيها بعض الآثار والمصاحف القيمة، والكتب المخطوطة النادرة. وقد كتب في القبة: أمر بها السيد المختار الجامعي وزير السلطان الأعظم مولاي الحسن سنة 1299 ميلادية كما تفرجنا على المدرسة العنانية وهي من آثار المرينيين شيدها أبو الحسن وأتمها أبو عنان.

ثم توجهنا إلى فاس وهي من أكبر المدن الإسلامية في المغرب العربي، وتحتل مقاماً ممتازاً كعاصمة يرجع تاريخها إلى عصر

المولى إدريس الثاني الذي شيد فيها سنة 193هـ. عدوة القرويين ثم عدوة الأندلس، وفيها من الآثار الخالدة الإسلامية ما يفوق كل وصف، فيها منارة القرويين ومنارة جامع الأندلس وباب الفتوح وباب الشماعين ومدرسة الصفارين ومدرسة العطارين والمدرسة العنانية ومدرسة الشراطين وبرج النور وبرج سيدي بو نافع. وأهم أثر فيها هو جامع القرويين ذو المهابة والجلال ففي وسطه شيدت نافورتان لمياه شبيهتان بنافورات قصر الحمراء بغرناطة.

وللمسجد 14 باباً، وقد قام هذا المسجد بدور عظيم في تطور الحركة الفكرية والثقافية بالمغرب والأندلس، كل من زاره يقف خاشعاً أمام عظمة فن البناء وما أنفق عليه من قناطير مقنطرة، وما اعتقد أن الإسلام قد ترك في المشرق من أمجاد العمران ما تركه في المغرب، هذا النقش على الجبس وذاك الخشب من الأرز الجميل المنجور، وكله مزين بما حفر فيه من آيات وما نقش عليه من شعر وتاريخ نافر، والقيشاني بأغلى أنواعه ودقيق صنعه يعمر الجدران والمحاريب.

وأما منازل الأساتذة والطلبة التابعين لجامعة القرويين فحدث ولا حرج عن قيمتها الأثرية، وما احتوته من نوادر في آيات البناء والنقش. والدروس تلقى في الجامع بالصورة البدائية حتى اليوم، التلامذة جلوس على الحصر والجلود، والمعلم على عرندس غير عال، وإلى جانبه لوحة الكتابة السوداء.

وقد كتب في بعض منازل إحدى المدارس التي يقيم بها طلاب الجامع ما يلي:

«النصر المكين والفتح المبين لمولانا أبي عنان المريني». وتاريخ هذه المدرسة يعود إلى تاريخ 598هـ. وقد كان في فاس 14 مدرسة، زرنا معظمها كما سلف القول. ولكن ويا للأسف هذه المدارس الأثرية مهملة والعناية بها كأثر قيم نادر جداً من جهة الترميم

والنظافة، مما لا يتناسب مع مركز فاس الأثري، كمدينة تتجلى فيها روعة الفن المغربي الأندلس، في هندسة القصور والدور والمتنزهات والحدائق، كما تتجلى في الفنون والصنائع اليدوية التي اشتهرت بجودتها. كما هي مدينة كانت مهجر الكثير من العائلات الأندلسية والقيروانية والجزائرية، لهذا ترى شوارعها في المدينة القديمة داخل السور، تعطيك صورة عما كانت عليه بعض مدن الأندلس، شوارع ضيقة وبيوت متلاصقة، وكشوك قائمة، وحدائق قرب المنازل.

وقرب السور تقع حديقة كبرى منظمة أحسن تنظيم تسمى «حديقة السبيل» وفيها ناعورة تدور على مياه قناة كبيرة من أقنية النهر المجاور تقليداً لنواعير المشرق. وودعنا المدينة القديمة منطلقين إلى فاس الحديثة، المدينة الضاحكة ذات الأبنية العالية والساحات الواسعة والطرق العريضة، والمحال الاجتماعية الراقية، وكان لا يسكنها قبلاً غير الأجانب أما اليوم ففيها أقلية من المغاربة المسلمين.

وعدنا إلى الرباط عن طريق سيدي يحيى وسيدي سليمان، لنكمل مسعانا في سبيل الحصول على موافقة تبيح تسجيل مؤسسة البنك العربي في المغرب.

إلى الدار البيضاء

ويوم 24/ 12/ 957 توجهنا بالسيارة إلى الدار البيضاء، والمسافة إليها 92 كم. قطعناها بساعة ونصف الساعة، والطريق ساحلية عامرة بديعة، وحللنا في فندق مرحبا، وهو فندق حديث. والبيضاء مدينة أوروبية حديثة جامعة، أكبر وأجمل مدن المغرب، وهي عاصمته التجارية وميناؤه الأول، تبلغ مساحتها 375

هكتاراً، ويتجاوز سكانها النصف مليون، من بينهم 300 ألف من المغاربة، فيها كل معالم المدينة والحضارة، وأجمل الحدائق والقصور والأسواق وكبريات المخازن والمقاهي والمطاعم. فيها جالية سورية لبنانية صغيرة، وكبيرها السيد جوزيف زبليط من أبناء اللاذقية الذين هاجروا إلى تلك البلاد ونالوا بسطة من العيش والرزق، وهو يحمل أطيب الشعور لوطنه الأم ولأبناء قومه.

وقد قضينا ليلة عيد الميلاد في وسط الدار البيضاء المتلألئة بالأنوار، فكانت تلك الليلة كلها شعلة من نور، تعج بآلاف من السواح والمسافرين، الذين أرادوا قضاء فرصة أعياد الميلاد ورأس السنة في جو مراكش البديع.

إلى مراكش:

وصباح عيد الميلاد قصدنا مراكش بالسيارة، وتبعد عن الدار البيضاء 250 كم. قطعناها بكل راحة في وسط يوم ممطر، في غضون ثلاث ساعات، بفضل تلك الطريق العظيمة، التي تصل ما بين المدينتين الكبيرتين.

وتقع المدينة على بعد 30 كم. من الأطلس الكبير، وارتفاعها عن سطح البحر 450 متراً، أسسها الأمير يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس، وأتمها بعده الخليفة عبد المؤمن الموحدي الذي بنى فيها عدة آثار، من بينها مسجد الكتبية، وقد أقام منارته الشهيرة الخليفة يعقوب المنصور الموحدي. كما أن بها باب أكناو والقصبة والمشور ودار المخزن وجامع ابن يوسف ومدرسة وقبور السعديين وأطلال قصر البديع وقصر مولاي عبد الحفيظ.

وتمتاز مراكش بحدائقها الغناء، وجنانها الكثيرة، وحقولها الخضراء، والأشجار المثمرة التي تحيط بها من كل جانب، زيادة

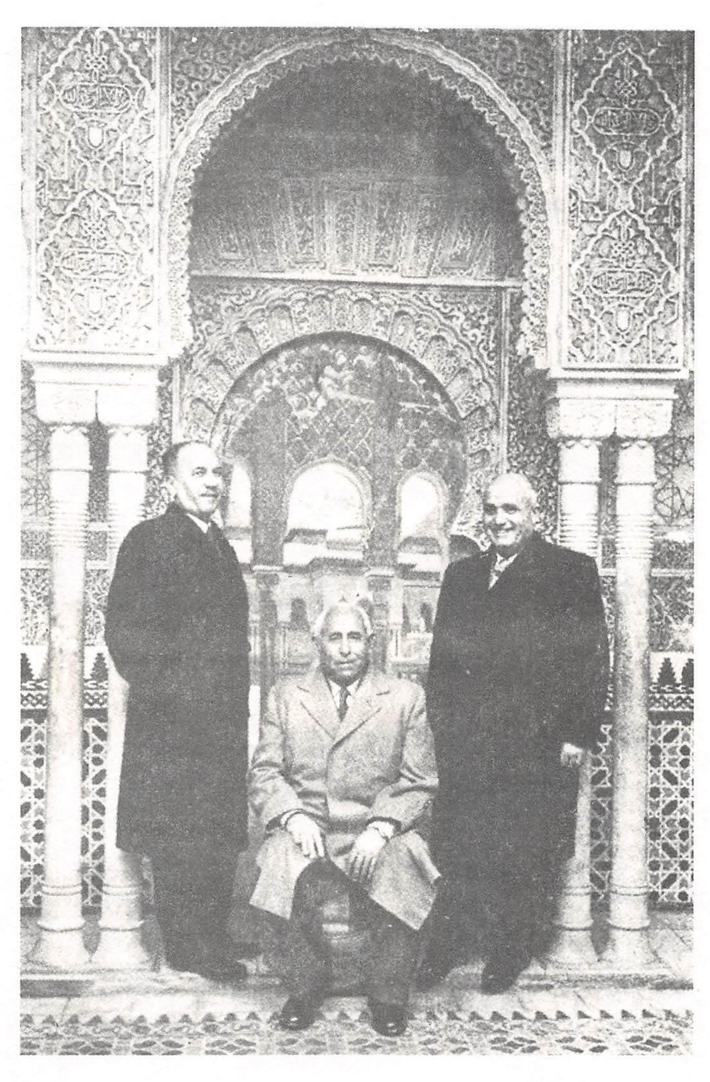
على غابات النخيل التي توجد بالقرب منها والتي تبلغ مساحتها 13 ألف هكتار بها نحو 100 ألف نخلة، تجولنا ضمن أسوارها وفي أحيائها القديمة. وبعد زيارة الكتبية وأوكدال التي بها حدائق قصر السلطان الواسعة، المليئة بالنخيل والبرتقال، والتي تضم بحيرات كبرى جداً للنزهة وللسقاية وللمراكب، قمنا بزيارة جامع ابن يوسف، ومدرسة وقبور الأشراف السعديين، وجامع المنصور، وقبور العلويين.

وألفينا أن آثار مراكش كآثار فاس تبعث في النفس الروعة، لهذا المجد التالد الماثل في الجوامع والمدارس العظيمة. وتسمى مراكش الحمراء، لأنها مطلية كلها باللون الأحمر. والمدينة الحديثة خارج السور، مدينة أوروبية بديعة غرست أشجار النارنج والبرتقال في ساحاتها وشوارعها، فأكسبتها بهاء ورونقاً نادراً.

وقصدنا فندق المأمونية لتناول الغداء، وهو أفخم فندق في المغرب، يفتح للسواح في موسم الشتاء فقط للدفء بشمس مراكش، وفي هذا الفندق كان استجم في أيام الحرب السيد تشرشل. تجولت في أبهائه وصالاته المبنية على الطراز المغربي الشرقي، ونعمت بمنظر فسقيات الماء في داخله وبنقوشه الزاهية، وبحديقته الغناء المديدة المنظمة خير تنظيم، وأدركت ألا مثيل لهذا الفندق في بلادنا الشرقية ولا نظير في فخامته وحسن موقعه وجميل أثاثه. وعدنا إلى البيضاء في وسط أمطار غزيرة استعد للعودة إلى الوطن بالطائرة عن طريق باريس، بعد أن طال الغياب عنه وكثر الشوق إليه.

وهكذا أنهيت رحلتي في ختام عام 1957، عائداً من المغرب العزيز إلى ديار المشرق، شاكراً المولى القدير على ما كتب لي من سعادة وغبطة في هذه الرحلة الممتعة، التي ستظل آثارها خالدة في نفسي ما حييت والسلام.

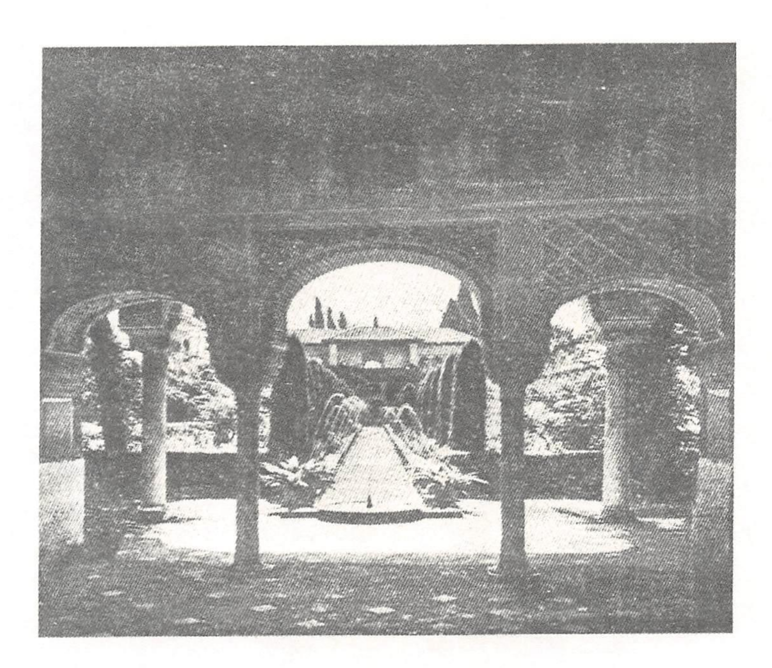
ملحق الصورّ



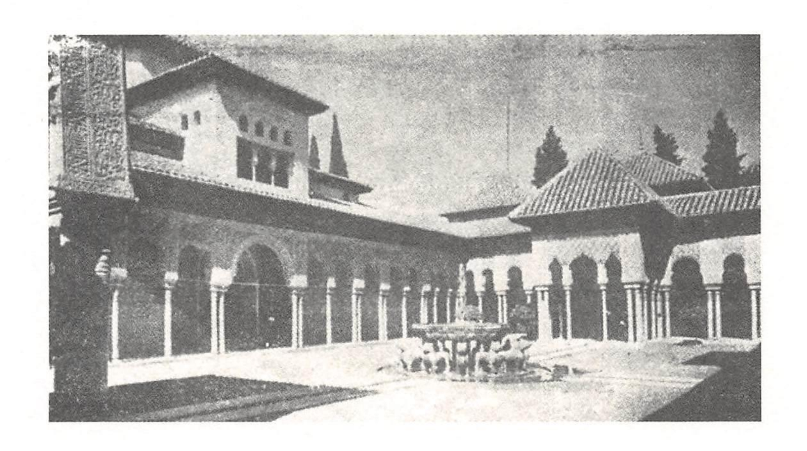
في قصر الحمراء في غرناطة

الجالس السيد عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي

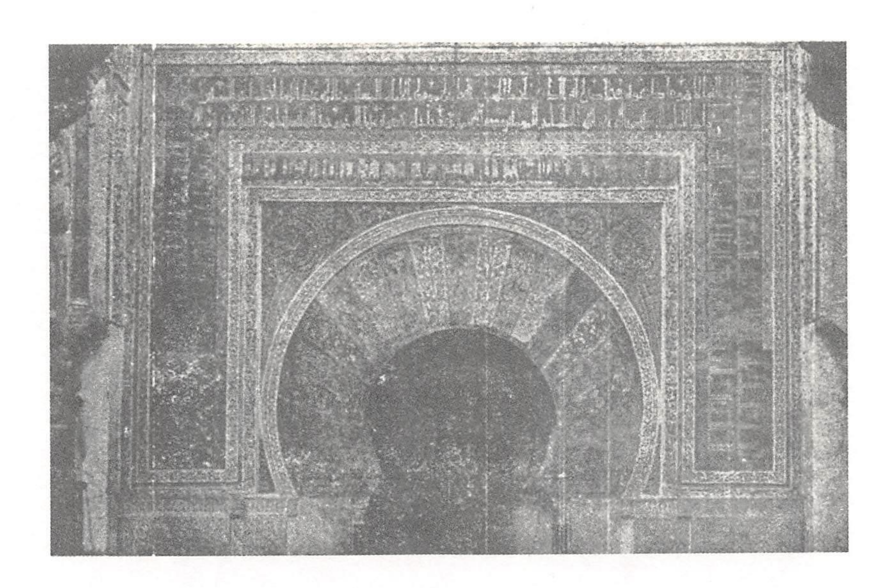
وإلى يمينه معالي السيد منصور قداره وإلى شماله محمد سعيد الزعيم



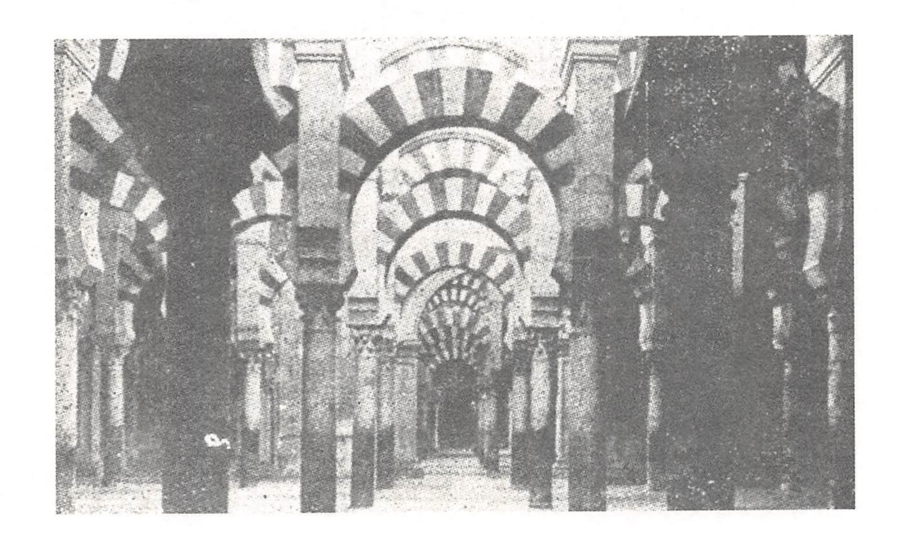
أحد مناظر قصر الحمراء في غرناطة



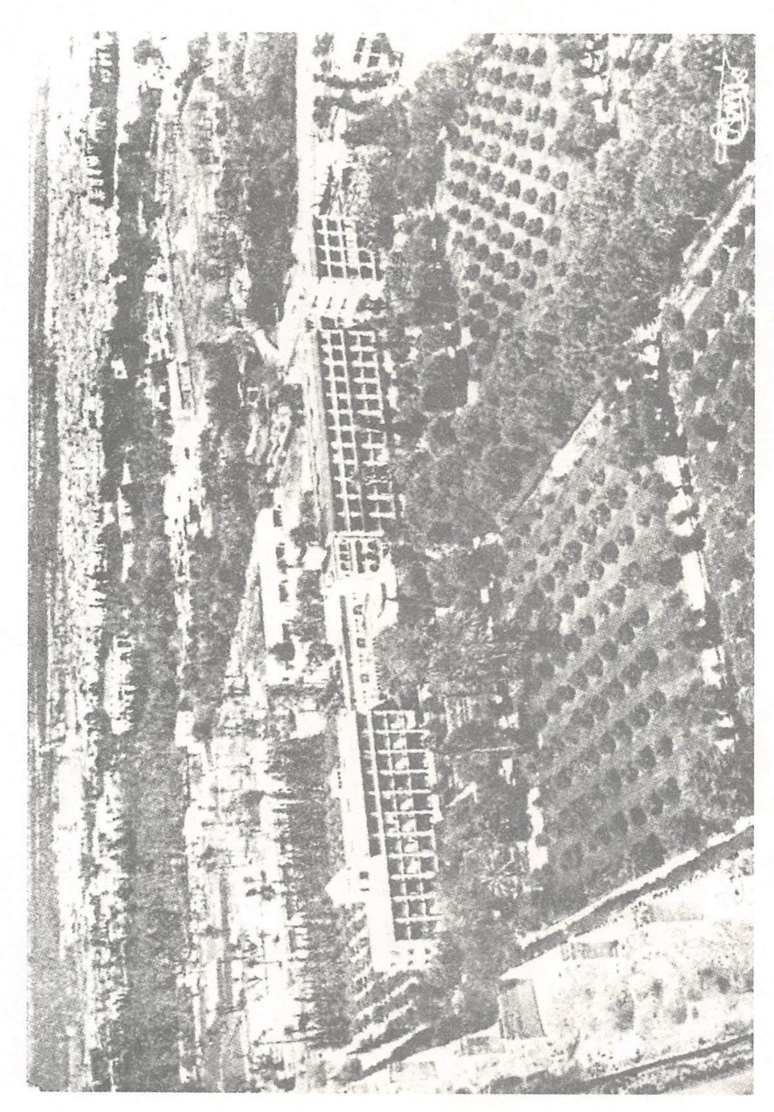
ساحة السباع في قصر الحمراء



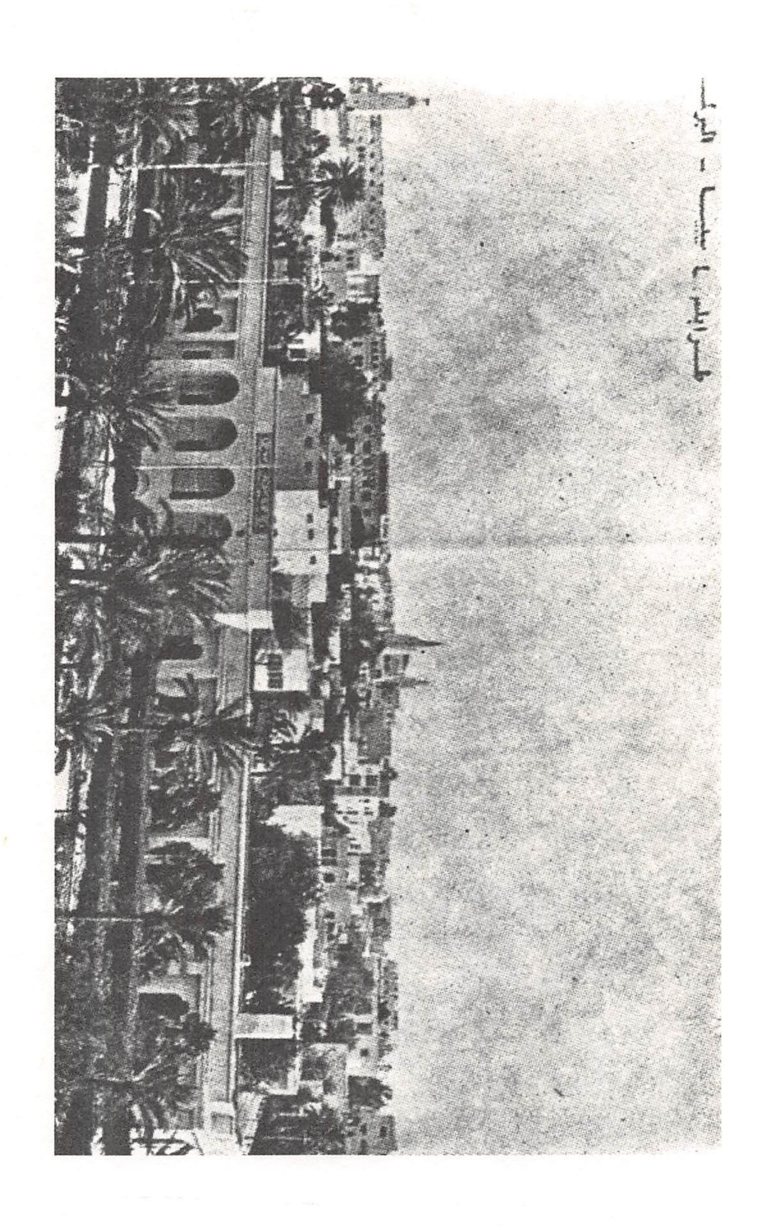
محراب جامع قرطبة



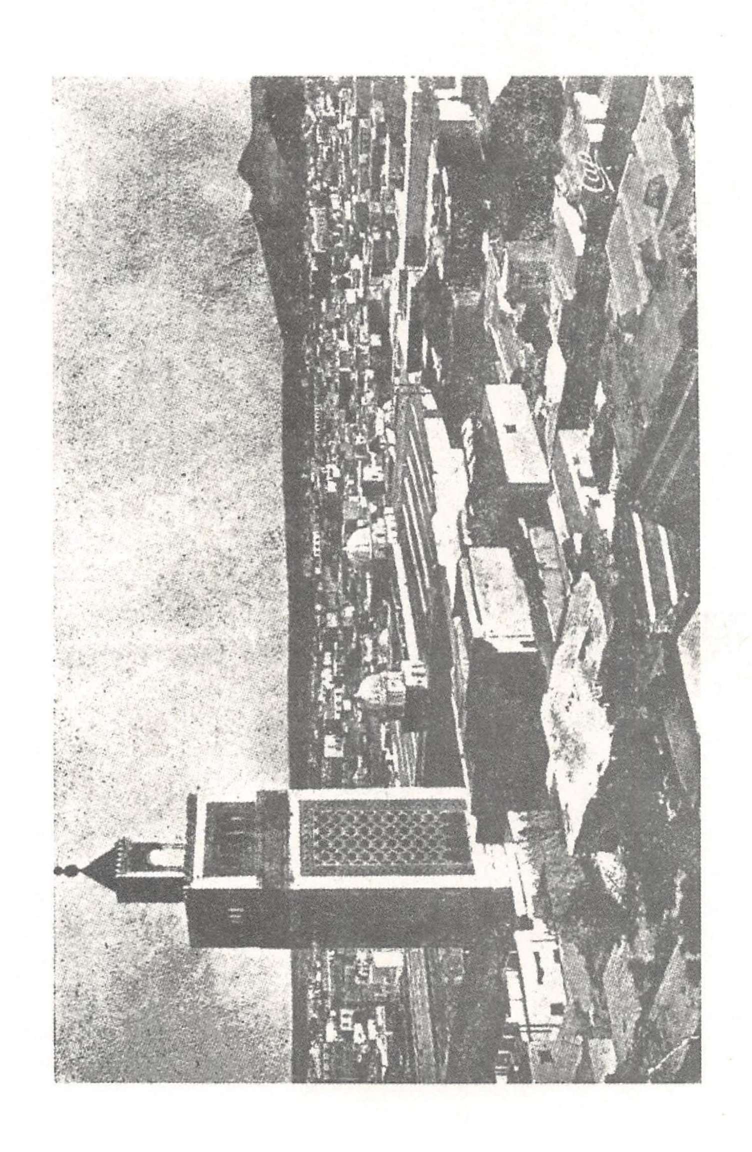
جامع قرطبة



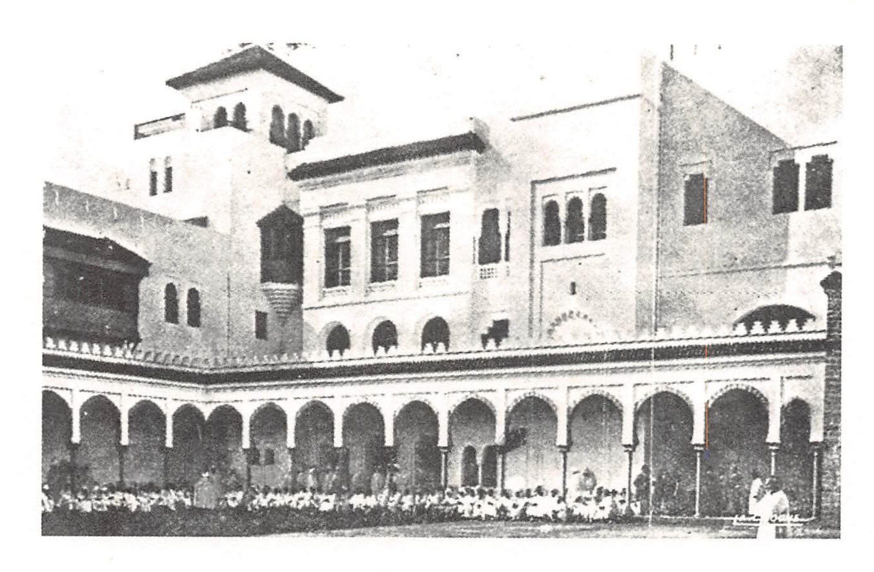
فندق المأمونية ومدينة مراكش وحدائقها



مجلس الأمة في طرابلس الغرب



تونس ومأذنة جامع الزيتونه



الحرس المغربي في بلاط محمد الخامس



فرح عند البربر في المغرب العربي

فهرس الأماكن والأعلام

الفهرس

صدر حديثاً من هذه السلسلة

- رحلة نيقولا السيوفي. بيروت، كردستان، بغداد1873
- رحلة حمود البوسعيدي. الحجاز، مصر، الشام 1872
- رحلة الشيخ محمد بهجة البيطار 1920 إلى الحجاز ونجد
- رحلة إلى جبال العلويين. ليون كاهون 1878
- رحلة إلى قلعة آلموت. فلاديمير إيفانوف 1940

قيد الإنجاز :

- من دمشق إلى تدمر ـ جون كليمان 1908
- رحلة إلى سوريا ولبنان ـ يان بيسترون 1926